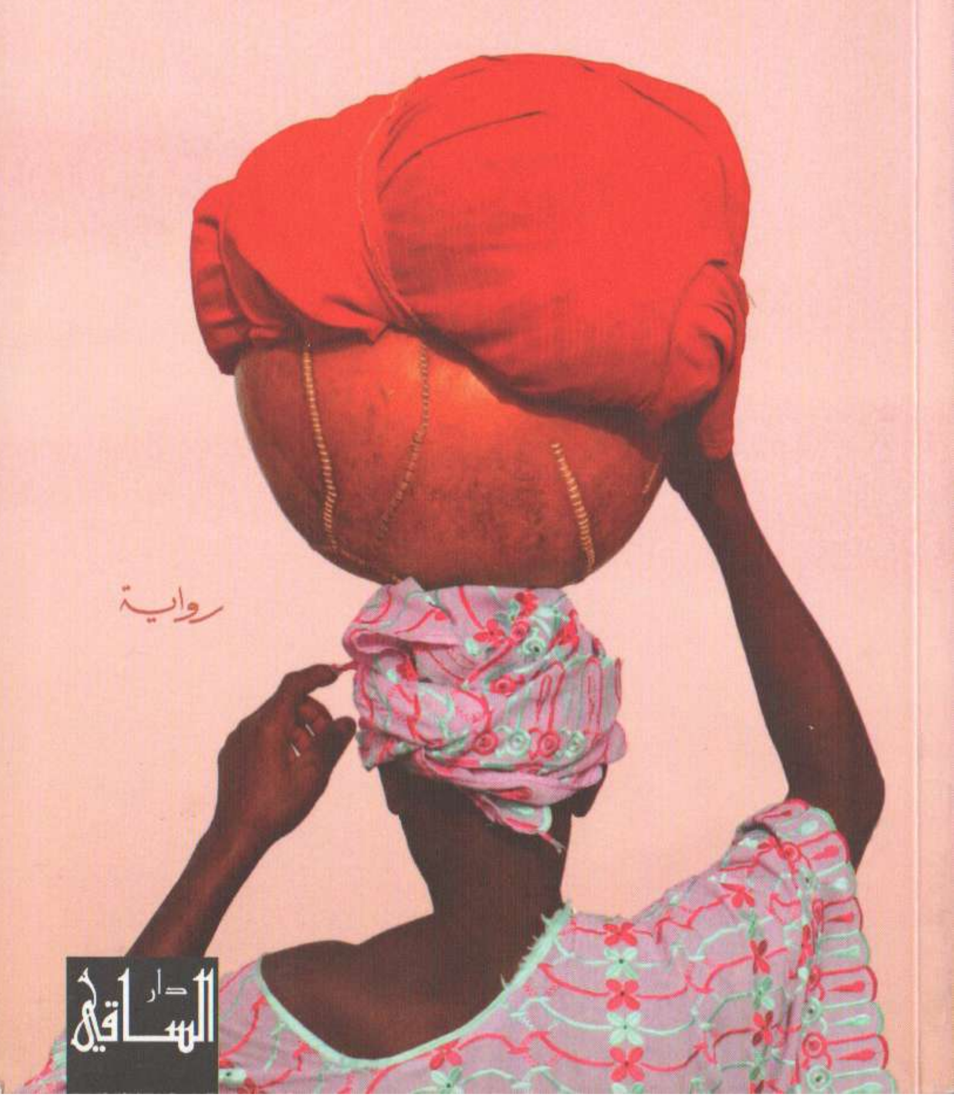
الطبعة الثانية

طعم أسود... رائحة سوداء

علي المقري



رواية

دار الساقي



تصميم الغلاف: ماريا شعيب





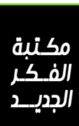
علي المقري

طعم أسود... رائحة سوداء

رواية



بيروت ـ لندن



© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠٠٨
الطبعة الثانية ٢٠١١

ISBN 978-1-85516-321-8

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ ١ ٩٦١ ٠، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ ١ ٩٦١ ٠
e-mail: info@daralsaqi.com

مكتبة
الفكر
الجديد

١٩٨١

- ١ -

لسنوات، ربّما، طويلة لم تُسمع في هذه المحكمة، كلمات من متّهم تَمتدح الخيانة، كتلك التي قالها ربّاش العبد. كان المتّهمون يقفون أمام القضاة لينكروا خياناتهم، أو ليبرروها، في معظم الأحوال.

بالنسبة إليه بدا الدفاع عن النفس مختلفاً:

- كلّنا خونة، يا حضرة القاضي. الإنسان كائن خائن. لكنّه يفقد ذاته، وصفته في اللحظة التي يتمّ فيها إثبات خيانته. عندما يبدأ بممارسة خيانة جديدة يسترجع وجوده وصفته في الحال.

أحدهم، وأمام اندهاش الحضور، صاح محتجاً، وحاول الاعتراض على ما سمعه، لكنّ القاضي أسكته. التفت إليه ربّاش:

- لا يكفي أن تقول أنا خائن إذن أنا موجود؛ بل تقول أنا أخون إذن أنا موجود. في الحال الأول تكون خيانتك فعلاً

مكتبة الفكر الجديد

ماضياً قد تحقّق، وبالتالي فقدت وجودك وصفتك، أمّا الفعل في الحال الثاني فهو ممارس في الحاضر ويحقق وجود الفاعل وصفته.

شعرت وأنا أسمع هذه الكلمات من أحد الأخدام، وهو يدافع عن نفسه في محكمة استئناف تَعِز، أنّني مضيت في طريق مختلف، حين قرّرت الهرب مع الدغلو من قرية الوادي، وجئنا لِنُحَوِّي طرف هذه المدينة، في العُشش الصفيحية والكرتونية، بين الاخدام.

سمعت كثيراً عن مغامراته التي أدخلته السجن قبل مجيئنا، وأبقته حتّى هذا اليوم الذي أُعيدت فيه محاكمته.

بدا قاضي المحكمة على عجل. نظر إلى الأوراق أمامه، فيما أصابع يديه تعبث بلحيته الكثّة وعِمامته. وجّه حديثه إلى الكاتب:

- القضية رقم ٣٢ لعام... اكتب التاريخ الهجري، الموافق لعام ١٩٧٠ ميلادي، والمتّهم فيها ربّاش سعد بن سالم العبد بالخيانة واغتصاب وانتهاك حُرمة إحدى الأسر الكريمة، لا تكتب اسم الأسرة، تمّت إعادة النظر فيها من قبل محكمة الاستئناف اليوم بتأريخه والموافق، اكتب عندك التاريخ، وراجعنا حيثيّات الدعوى، والحكم السابق من المحكمة الابتدائية والذي لم يستأنفه المحكوم عليه منذ صدوره، ونفّذ مدّة منه. وبناء على توجيه، رئيس الجمهورية رئيس مجلس

مكتبة الفكر الجديد

القضاء الأعلى، أعدنا النظر في محاكمة المساجين الذين قضوا نصف فترة العقوبة، وكان سلوكهم جيّداً، ومن بينهم المحكوم عليه المدعو ربّاش العبد. فقامت المحكمة بسماع أقواله، حيث ذكر ما يلي. . . اكتب ما سيقوله، تكلّم. . هيّا.

صار من المعروف للذين تابعوا، أو حضروا، في الأسابيع الأخيرة، مثل هذه المحاكمات، أنّها تجري على هذه السرعة لبعض المساجين السياسيين المحكوم عليهم بتهم جنائيّة من أجل تبرئتهم.

قبلها ترددت أخبار عن تقارب سياسي بين شطري اليمن الجنوبي والشمالي بعد توقيع اتفاقات بينهما في مصر وليبيا والكويت، من أجل تحقيق الوحدة اليمنية. قيل إنّ هناك تفاهماً بين السلطتين في الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديمقراطية على العفو عن المساجين السياسيين، سواء أُدخلوا بتهم سياسية مباشرة أو بتُهم جنائية مُلفّقة.

ضمّ ربّاش أصابع يديه العشر فوق أحد قضبان قفص الاتّهام الحديدية، وراح كمن يقف على مِنبر ممسكاً عصا ويخطب:

- حضرة القاضي، جرّموني قبل أكثر من عشر سنوات بخيانة الوطن بسبب عضويتي في الحزب، وخيانة الأسرة التي عملت عندها لأنّني أحببتُ ابنتهم. الآن تقولون خيانة فقط، لا تذكرون خيانة مَن واغتصاب مَن، وكيف.

مكتبة الفكر الجديد

بدا كاتب المحكمة منهمكاً بتدوين كلّ ما يسمعه، فيما أمر القاضي المتهم بالاختصار والتركيز، والذي مضى خاطفاً بعباراته:

- كلّنا نمارس خيانة الوطن بشكل من الأشكال، مادام يسمّى وطناً، كما هو يقوم بخيانتنا. الوطن هو الخيانة. كلّ وطن خيانة. فكرة الوطن خيانة. الحدود الوطنية خيانة. التربية الوطنية خيانة. العلم الوطني خيانة. المصلحة الوطنية خيانة. الأحزاب الوطنية خيانة. الوطنيون خوَنة. المجتمع خيانة. الطبقة خيانة. العائلة خيانة. الزواج خيانة. الدين خيانة. القوانين خيانة. التقاليد خيانة، حضرة القاضي.

ضج الحاضرون معترضين. أحدهم كان صوته عالياً:

- هذا خائن. خادم خائن. اعترف أنّه خائن للوطن والدين والتقاليد. احكم عليه. اعدمه. حضرة القاضي، هذه خيانة واضحة.

أمر القاضي المتكلّم بالسكوت، وأشار إلى القاعة طالباً الإصغاء، لكنّ أحداً لم يستجب له، إلاّ بعد أن واصل ربّاش:

- نحن موجودون صِفةً ليس لأنّنا نمارس الخيانات، نحن موجودون لأنّنا نمارس خيانة الخوَنة. لم يتركوا لنا مجالاً لنشاركهم في الخيانة، خيانة أيّ شيء، فمارسنا خيانتهم.

وإذْ صمت لحظة، عاد والتفت إلى القاضي:

مكتبة الفكر الجديد

- حتّى أنت حضرة القاضي خائن. أنت خائن لأنّك تخون الناس كلَّ يوم. خائن وإن لم تعرف ذلك. أنت أيّها القاضي أنت.

تلفّت الحضورُ مستغربين عدمَ إسكات القاضي له مع كلّ ما سمع من كلمات موجّهة نحوه. ربّاش نفسه داهمه، كما بدا، هذا الاستغراب عندما راح يصرخ بكلماته الأخيرة. ربّما، فاجأه أكثر قول القاضي له حين صمت: «هيّا أكمل، إذا بقي لديك ما تقوله»؛ حيث انهار جسده داخل القفص ومضى يبكي في تشنُّج عالٍ.

دعا القاضي الشهود ليسجلّوا أقوالهم، وقبل أن يكملوا توجّه إلى الكاتب:

- اكتب عندك أنّه قد تبيّن للمحكمة من خلال أقوال المتّهم، وسماع أقوال الشهود أنّ المذكور مختل عقلياً، وتنتابه حالة جنونية، بين وقت وآخر. وعليه قرّرنا أنّه لم يكن في حال وعي حين قام بما عمله، وعليه، يتم الاكتفاء بالمُدّة التي أمضاها في السجن، كعقوبة له، على أن تقوم أسرته بمراقبته وعدم السماح له بالقيام بتصرّف غير لائق.

شغلت هواجسي كلماتُ ربّاش. لا أظنّ أنني سأسمع مرّةً أخرى مرافعة كهذه. يقارب عمره الأربعين عاماً، أو يقلّ بقليل.

صرت أعرف الرفض الكامن في صدور الأخدام لكلّ من حولهم، لكنّني لم أعرف واحداً منهم، غير سرور، يمتلك

مكتبة الفكر الجديد

مقدرة لغوية وفكريّة، يستطيع بها التحدّث، بل والشجاعة في البوح بمعتقداته، على نحو ما فعل ربَّاش، أمام محكمة لا تسمح عادة للأخدام بدخولها، حتّى وإن كان لحضور جلسات تُعقد لمحاكمة أهاليهم. يدخلونها، فقط، حين يُقبلون كخدّام فيها، يكنّسون القاعات والغرف من الأوراق التي يرمي بها الكُتّاب والمتقاضون، وينظّفون الأوساخ التي تتناثر من الأحذية والأفواه.

أبلغتُ أخته شمعة بما جرى. قلت لها، ولمن جاءوا معها إلى باب المحكمة، إنّهم سيُفرجون عنه بعد الظهر حال إكمال إجراءات إطلاق سراحه من السجن المركزي.

كثيرون ظلّوا أمام المحكمة يسألون العابرين عن مواعيد محاكمة أقاربهم الذين، أخيراً، أزاحت أصابع الرياح تراكم النسيان فوق سجلاّتهم المهملة.

- ٢ -

في المساء سمعنا أصوات زغاريد من نساء العُشش، وأغاني فيصل علوي تجيء من مسجّلة شَمْعَةْ:

«طِيْبْ يازين طِيْبْ

أَلاَ مرحباً بالحبيبْ

أَلاَ كُلّ شيء بالنصيبْ

ألاَ مَلِيحْ يازِينْ».

مكتبة الفكر الجديد

طلبت منّي الدغلو أن نذهب للتهنئة بخروجه من السجن. نادينا جارتنا عيشة لترافقنا.

حكايات كثيرة سمعتها عن ربّاش. قالوا إنّه شَرِسٌ تجاه أيّ شخص يقوم بمضايقته. حسب صفاته الأكثر انتشاراً، عِربيد، سِكّير، متقلّب المزاج، بين الانبساط والغضب.

ويبدو أنّ الصفة الأخيرة قد غلبت عليه أثناء استقبالنا. فما إن رآني قادماً حتى قام صائحاً: «ما جاء بهذا النذل إلى عندنا. مَن الذي دلّه. ما مقصدك. من أين جئت. الآن عادنا خرجت من السجن. امشي قبل ما أقتلك».

حاول الحضور تدارك الأمر، ولكن بلا فائدة. أخذ بيديه فأساً من حديد كانت معلّقة في العُشّة، وضمّها براحتيه كمن اشتاق إليها كثيراً، ووجّهها نحوي.

هربتُ نحو عُشّتنا لتتبعني الدغلو وعيشة. وفي ساعة متأخّرة من الليل، جاء ربّاش ومعه أخته ليعتذر.

ظهر مزاج الانبساط غالباً في سُكره هذه المرّة. لهذا طلب منّي أن أروي له قصّتنا التي كانت شمعة قد أضاءت له بعض ملامحها.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

١٩٧٥

- ١ -

قبل أن أمضي كضربة ريح، كان هناك حدثٌ لا يمكن للإبرة تشكيل خيوطَ حبكتِه بدون الرجوع إلى حركة خَيطِه الأولى.

ليلتها لم أقم سوى بتتبُّع خيط الرائحة الحارّة، لا أكثر. تذكّرت أثناءها قصّة الملك شمسان والمُزَيِّن[١] مرجان التي روتها لي أُمّي مجدّداً قبل ليلتين، لكنّ ما شدّني إلى جَمَالَهْ كان أكثر قوّة من خيط القصّة.

«الملك شمسان أحبّ ابنة المُزيِّن مرجان فتزوّجها. وفي صباح اليوم الثاني وجدوه تحوَّل إلى دود»

«لِمَ تِحوَّلْ دود يا أمي؟»

«لأنّه جَامَعها. هي ناقصة. ما تساويش مَقامه»

---

(١) المُزيّن: هو الحلاّق، يقوم، مع أسرته، بخدمة بيوت القرية في المناسبات العائلية والاجتماعية.

مكتبة الفكر الجديد

«وإذا تزوّج إنسان عادي ابنة مُزَيِّن، شِتْحوَّلْ دود؟»

«أَيْوَهْ[1]. يابْنِي[2] المُزَيِّنين ناقصين على جميع الخلق».

«من شِتْزَوَّجْ بناتَهُنْ[3]، إذا كان اللّه خَلَقْهِنْ ناقصات؟»

«يتزوّجِنْ من مُزَيِّنين مِثْلَهِنْ، أو يتزوّجِنْ الجِنْ».

لم أكن أعرف كم عمري، إلاّ أنّني عرفت بعدها أنّني كنت قد بلغت السنّ التي أستطيع فيها أن أُحبِّل امرأة.

أبي وحده يعرف عمري الحقيقي. سجّله في ورقة صغيرة، ووضعها في وسط جواز سفر سافر به إلى الرياض، منذ سبع سنوات للعمل هناك في مطعم استأجره مع شريك سعودي.

ظلّت أُمّي تقيس عُمري بعمر السَّلاّلِيّة التي ولدت مع ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢. ولُقّبت بالسلاّليّة نسبة إلى عبداللّه السلاّل أوّل رئيس جمهوري. كانت تقول إنّها وُلدت في اليوم الذي ولدتُ فيه؛ لكنّها سرعان ما تخلّت عن فكرة المقارنة أو القياس بعد أن حدث ما حدث في ليلة زفاف السلاّليّة.

في تلك الليلة تنادت مع جاراتها الأربع ليذهبنَ إلى منزل العروس، في الجانب الآخر من القرية الذي يفصله عنّا ممرّ سائلة وتلٌّ صغير.

اتفقنَ أن يجمعنَ أطفالهنّ إلى منزلنا، ويأتين بجَمَالهْ ابنة

---

(١) أيوه: نعم.

(٢) يا ابني

(٣) بناتهم.

مكتبة الفكر الجديد

شمّاس المُزَيِّن لرعايتهم حتى يرجعن.

كنتُ في نظرهنّ مازلت طفلاً، ولا يمكن أن يركنّ إليّ وحدي في رعايتهم.

كانوا ستّة، أربع بنات وولدين بالإضافة إلى أختي وأنا. باستثنائي وجماله، فإنّ أكبر من في المجموعة لا يتجاوز العاشرة، وهي أختي ريحانة.

عُمر جماله يقلّ بقليل، أو يزيد بقليل، عن العشرين عاماً. ساعدتها في تهدئة الأطفال، باحتضانهم وهدهدتهم ليناموا. بقيت قريباً منها، ولم أشأ مفارقة الرائحة الطافحة مع العرق الحارّ من جسدها.

ليس أمامي سوى الحيلة. قلت لها بعد أن راح الأطفال في نوم عميق:

«إشترقدي[١] وإلاّ لا؟»

«أيوه وأنت؟»

«أنا آلِفْ أرقد قُدَّام أمّي، و ما شجيش لي[٢] النوم حتى ترجع إلاّ لو..»

«لو ما...؟»

«لا... لا»

---

(١) ستنامين.

(٢) لن يجيء.

مكتبة الفكر الجديد

«تشتيني[1] أنوّمك مثل أمّك؟ إجِيْ[2] نَفْرِشْ هناك وإرْقُدْ أمامي، شَخْكِي لكْ حكاية من بلاد الجِنْ والإنسْ»

كحركة جفن قمتُ. وضعت على الأرض فرشَ أمّي، وعليه استلقيت بجوار جماله، وحكايتها: «كان يا ما كان في بلاد الجان صبي فتّان، مليح الوجه، فصيح اللسان، راح في يوم من الأيام يتمشّى إلى بلاد الإنس، فوجد صبيّة فاتنة، وجهها كالصبح ومبسمها كالشّهد وعيناها كالبيضتين، وقِوامها لا هو بالطويل ولا بالقصير، وجسمها ليس بالنحيل ولا بالسمين، وعَرقها عِطر لا يشبه كلّ العطور. عشق الصبيّ الصبيّة، وعشقت الصبيّة الصبيّ، فامتزج جسداهما في روح واحدة. رفضت الصبية أن تتزوّج غير هذا الجنّي أيّ إنسي، ورفض الصبيّ أن يتزوّج غير هذه الإنسيّة أي جنّية. كان أهل الصبيّ من الجنّ يضربونه ليخرجوا منه الإنسيّة، وكان أهل الصبية يضربونها ليخرجوا منها الجنّي. بقيا على هذه الحال سنوات طويلة حتى هربا في يوم من الأيام وسكنا بلداً لا يعرفهما فيه أحد. هناك توالدا وتكاثرا واختلط أحفادهما بين الناس والجانّ، إلاّ أنّ الإنسيّين والجنّيين لم يقبلوا بهم. كلّ جماعة اعتبرتهم ناقصين دون مستواها، فأبقوهم عندهم لخدمتهم مُزَيِّنين ومنظّفين للأوساخ».

---

(١) تريدني.

(٢) تعال.

مكتبة الفكر الجديد

كأنّها تقرأ في كتاب، أكملت الحكاية في وقت تشبثت فيه بجسدها، محاولاً بذراعيّ وجسمي، الالتصاق بها تماماً.

أنزلتني من على صدرها إلى أمامها. كبستُ أنفي وكلّ رأسي بين نهديها المشدودين والمبلّلين بالعرق. راحت تمسح شعر راسي وتضمّني. أحاطت خصري بيدها وجذعي الأسفل إلى بطنها، وأدخلت رجليّ بين فخذيها. بقيت تقلّبني من جوارها إلى فوقها، ومن فوقها إلى جوارها. بسرعة خلعت سروالها وفستانها، وبتوتر شديد، نزعت عني ملابسي، وإذ غاص جسدي الصغير في جسدها الصاخب، سألتني:

«ما تخفش[1] من الجنّ؟»

« لا..»

«إذا اختفيت في جسمي وجاءوا يَضْرِبُوكْ. إشْتَخْرُج؟»

«لا.. ما شَخْرُجشْ خَالِصْ».

«إذا هكذا، هيّا إدْخُلْ ».

دخلتُ وتشبّثت. حاولت أن أذوب، لكنّني بقيت طافياً كالنحلة في شباك العسل.

«لِمَ لا تخفينني في جسمك؟»

كنت متلهّفاً لهذا العالم الجديد. قالت:

---

(١) ألاَ تخاف.

مكتبة الفكر الجديد

«أنا خائفة إذا ما أَخْتَفِتْشْ في جسمي، تصبح وجسمك دود».

«لكنّكِ ما تِزَوَّجْتِينيشْ؟»

«نِكْتَنِي وهذا يكفي».

«إذا هكذا. . اتركيني أختفي في جسمك».

«أنتَ خائف. تقوم الصباح وأنت دود؟»

«لا مُشْ خائف. لكنّي أشْتِي أعيش داخلِكْ».

اتفقنا ليلتها على الصعود إلى سطح المنزل لنبقى نحاول الدخول في بعضنا حتى الصباح. سنقول لأمّي حين تعود: «شِنَطْلَعْ السَّقفْ نكمل الحكاية». لكنّ هذا لم يتحقق، فبعد لحظات من محاولات الامتزاج، رحتُ في نوم عميق، ولم أدرِ بوجودي إلاّ في الصباح، إذْ صحوت متحسّساً جسمي الذي بقي كما هو ولم يتحوّل إلى دود.

رأيت أمّي مستلقية وبجوارها أختي ريحانة. في زاوية أخرى كانت جَمَالهْ، التي يبدو أن أسرتها لم تجئ في الليل لأخذها، غارقة في نوم عميق كأنّها لم تعرف مثله من قبل.

- ٢ -

اعترفت، بعد أن انتفخ بطنها، بما حدث في تلك الليلة الدافئة من ليالي الربيع، ولم أستطع الإنكار أو الاعتراف. التزمتُ الصمت. أمّي ظلّت تؤكّد أنني دون التاسعة، وبالتالي لا

مكتبة الفكر الجديد

يمكن أن أُحَبِّل امرأة. لم يأبه إلى قولها أحد، كما لم يطلب أحد معاقبتي. جماله وحدها هي هاجسهم.

عمري، مقارنةً بعُمر السلاّليّة ثلاث عشرة سنة، لكنّه، على الأرجح، كان أكثر.

في جلسات وصفت بالسرّية، استمرّ جدل بين فقهاء القرية وعُقّالها وشيوخها لعدّة أيّام، وفي النهاية قرّر معظمهم رمي جماله بالحجارة حتى الموت: «ارتكبت أكبر الكبائر، زنت. وقامت بأكثر من هذا، خرقت العادات والتقاليد التي لا تبيح المعاشرة مع المزيِّنين».

اختلفوا حول عدد الجلدات التي تستحقها، باعتبارها، كما قالوا، (مُزيِّنة) غير مكتملة الحريَّة، وغير متزوّجة. البعض قال: مئة جلدة مع نفي من القرية لمدة سنة. ورأى آخرون: النصف في الجلد بدون نفي، هي الشريعة. قالوا إن القتل يجوز، فقط، في تكرار الفعل للمرّة الرابعة، وقيل في التاسعة.

منهم من قال برجمها بالحجارة، فيما رأى غيره جلدها. أحدهم أجاز الاثنين.

«عند الإمام الشافعي، إذا زنى صغير بكبيرة جاهلاً بالتحريم، بعالمه، أو استدخلت ذكر نائم في فرجها، وجب حد العقوبة على الكبيرة، والعالم، والمستدخلة ذكر النائم دون الآخر» قال أحدهم. لكنّ آخر استدركه: «عند الإمام أبي حنيفة

مكتبة الفكر الجديد

الاعتبار بالرجل، فإذا سقط عنه، لم يجب عليها». أضاف الأول: «ولكنّها بمكانة الأَمَة أو الجارية؛ إنّها مُزَيِّنة، والشافعي ومذهب الإمامة عندهم: إذا زنى أحدٌ حتى بجارية ولده، لم يجب عليه الحد».

«وعند داوود يجب عليه الحد» ردّ عليه آخر.

من هذه الجلسات السِرِّية، في الغُرف المغلقة، نقل الحاضرون تفاصيل ما دار من نقاش وأقوال، بلغة فقهية فصيحة، بقيت أحفظها، من كثرة ترديدها، ومنها ما قاله حاكم القرية والناحية: «إذا تم تنفيذ عقوبة بدون علم الحاكم، فيكون ذلك بمقتضيات الواقع، ويصير حالاً، حدث بدون قضاء وأمر الحاكم، أمّا إذا أُبلغت، وكان عليّ إصدار حكم، فإنّ ذلك يخضع لميزان الشريعة، الذي يُقرر ما هو الصواب».

أُعتبر هذا القول إجازة بالقتل في غياب الحاكم وحُكمه.

علي البَشِم بدا واضحاً في معارضته الحكم غير المعلن. ظلّ يردد أنّه مخالف للشريعة الإسلامية: «يا ناس.. يا ناس. شروط الإحصان لإقامة الحد أربعة، عند الشافعي وسائر الزيدية: الحرّية، والبلوغ، والعقل، والوطء في نكاح صحيح، وعند معظمهم، إذا كان أحد الواطئين كامل الشروط، والآخر ليس بكامل الشروط ثبت الإحصان في حقّ الكامل منهما دون الآخر، فلا المرأة حُرّة ولا الولد كامل البلوغ».

لم يُنصت إليه أحد سوى أقرباء جماله؛ حتّى عندما تراجع

مكتبة الفكر الجديد

وصار يطالب، فقط، بتأجيل تنفيذ الحكم إلى ما بعد الولادة، لم يُنصت إليه أحد، أيضاً.

كانت أمّي تردّد: «إكرام الميت دفنه، وإكرام الزانية قتلها». همست لي بهدفها: «كي لا يجيء المولود يشبهك».

بدت متأكّدة أنّني الفاعل، مع أنّها لم تتحقّق منّي.

تُظهر الإنكار فقط أمام الآخرين.

دُفِنت، مع الذي في بطنها، بعد تهشّم رأسها وبقيّة أعضاء جسمها بالحجارة، التي راح كلّ من حضر المشهد يقذف بها نحوها، باستثناء أسرتها وأنا، وعلي البشم.

انتظرتُ أن أشارك في الصلاة عليها، كما يفعلون مع الموتى، وأن أمشي في جنازتها، وأردّد:

«لا إله إلاّ اللّه

الحيّ القيّوم اللّه

لا إله إلاّ اللّه

لا يبقى ويدوم إلاّ اللّه»

إلاّ أن ذلك لم يحدث، وتمّ دفنها في حفرة، لم أعرف مكانها، خارج مقبرة القرية.

لم أخشَ أن يكون مصيري كمصيرها، لكنّ انتظاري أجوبة عن أسئلتي الحارقة حول هذا الحدث تركني أستحسن تجاهلهم الحكم عليّ.

مكتبة
الفكر
الجديد

- ٣ -

بعد أيّام، قابلت في الطريق الدغلو، أخت جماله. تبادلنا السلام والكلام. قالت: «كان بالإمكان إنقاذ جماله من القتل». سألتها: «هل كان يمكن أن تعيش؟».

أجابت بحسرة: «أيوه. يا خسارة».

تكبرني الدغلو بخمس سنوات تقريباً وهي أكثر منّي خبرة. لم أسألها عن هذا الحلّ فلم تعد هناك فائدة منه.

كنت قد بدأت الدراسة في المدرسة التي افتتحت في مدينة سوق الربوع الصغيرة المجاورة لقريتنا. أدخلوني مباشرة إلى الصفّ الثاني لإجادتي القراءة والكتابة، إذ سبق وتعلمتهما في «المعلامة» عند فقيه القرية.

في الإجازة كلّفتني أمّي رعي الغنم بدلاً من أختي ريحانة، التي لم تجئ معي إلى المدرسة. لم يسمح أحد في القرية لابنته بذلك. بقي على طرف لسانهم مثلٌ ظلّوا يقولونه مع كلّ حديث عن دراسة البنات. البنات أنفسهن كُنّ يرددنه. حين تقول لإحداهن: «آه.. لو كنتِ تجي المدرسة معنا.. ما أحلاها؟»، ترد بالمثل المحفوظ: «النّاقة ناقة ولو هَدَرت».

أمّا المثل الآخر: «ما فيش مَرَهْ بالت من طاقة»[1]، فوحدهن المُسِنّات احتكرن حق البوح به، بدون خجل، حين يجلسن يثرثرن، أمام منازلهن، عن كلّ شيء.

---

(١) لا توجد امرأة قد بالت من نافذة.

مكتبة الفكر الجديد

صرت ألتقي الدغلو التي ترعى تسع غنمات في جبل الدخان، المسكون بالجن، كما يقول أهالي القرية. البعض يظنّ أنّه شاهدهم فيه كالدخان، ولهذا سُمّي هكذا.

لدينا ستّ غنمات تقوم ريحانة برعيها مع أولاد الجيران وبناتهم. لم تكن أسرنا من الرعاة المحترفين؛ فأكثرها يعتمد على الإرساليّات الماليّة من الآباء المهاجرين في السعودية وبريطانيا.

نمضي مع الغنم بين الجبل و الآكام من الفجر حتّى المساء. تكرّرت الأيام وطال الحديث، وصار يألف أحدنا الآخر. نسوق الغنم بعيداً عن الرعاة الصغار الآخرين كلّما حاولوا الاقتراب منّا.

عادةً يختلط الرُّعيان والراعيات في الجبل. يجتمع اثنان أو ثلاثة، أو أكثر، ويظلّون يتابعون الأغنام. يحدّدون اتجاهاتها فيما هم يواصلون لعب «عروس وعريس» مع أسئلة ألغاز الحزاوي، وتداول الحكايات.

في أحد النهارات قرّرتُ أن أخطب ابنة الدغلو هيلة إلى ابني ناجي، ولم تمضِ سوى لحظات حتّى تمّ الزفاف.

صُنعت ابنتها من عود ذُرة يابس اللبّ، يخترقه في الثلث الأعلى عود يابس من شجرة صغيرة ليمثّل اليدين. زيّنتها أمّها بثياب مزركشة فصّلَتها خصّيصاً لها. لا يختلف عنها ابني إلاّ في ملابس الرجولة التي فصّلتها بمساعدة الدغلو.

مكتبة الفكر الجديد

سألتني، ونحن نُقَرِّبهما:

«ما تَخَفْشْ؟ شِتْحَوَّلْ ابنك دود. تِزَوَّجْ ابنة مُزيّنة»

«لا..»

صمتت وكأنّها فوجئت بجوابي، فأضفتُ متذكّراً جماله:

«لا. ما شِتْحَوَّلْشْ»

«لكِنْ، إذا ما تحَوَّلشْ، شِقْتُلوْ بِنْتِي».

«لا. ما شِقْتُلوهَاشْ»

نظرت بحسرة: «ما إشْتَفْعَلْ؟ قَتلوْ جَمالَهْ».

أردت أن أسألها عن الحلّ الذي كان يمكنني اتخاذه، كما قالت، لإنقاذها، لكنّني لم أشأ أن أفضح عجزي عن إيجاد الحلّ والمقاومة، ورحت أؤكّد أنّ ما حدث لجمالة لن يتكرّر مع زوجة ابني هيلة.

بعد ليال، حكت لي أمّي مجدّداً حكاية بنت السلطان التي هربت مع ولد فقير أحبّته، وكيف عاقبها أبوها، ثمّ عاد وعفا عنها بعد عشرين سنة.

في صباح اليوم التالي قابلت الدغلو. قلت لها لا بدّ أن يتمّ زواج هيلة وناجي.

أعدنا حفل الزواج وجاء وقت اضطجاع الزوجين.

سألتني: «هل إشْتِقَاوم وتمنعهم عن قتلها؟»

كانت إجابتي جاهزة: «شَهْرُبْ مع جمالهْ، ما شَتْرُكهُمْش يَقْتُلوها».

مكتبة
الفكر
الجديد

التفتت إليّ بحركة سريعة، فانتبهت إلى أنّ حديثي فات أوانه. وأنّ التي زلّ بها لساني ترقد الآن في حُفرة ترابية لا سبيل للخروج منها.

تداركتُ كلامي. أوضحت بأنّني لن أدعهم يقتلون زوجة ابني مثل جماله. ستهرب هيلة كما هربت ابنة السلطان مع حبيبها الفقير إلى بلاد في آخر الدنيا، وسيعيشان هناك بدون خوف.

تمتمتْ بكلمات لم أسمع منها إلاّ بعض أطراف حروفها ومعانيها: «جماله قالت إشْتَهرُبْ معك. هم جاءوْ بسرعة. أنت تأخّرت».

هكذا، كشفت عن الحلّ الذي كان ممكناً. لقد تأخّرتُ إذاً. عجزتُ عن المبادرة، عن أن أفعل شيئاً.

- ٤ -

صرت أميل إلى رعي الغنم أكثر من ميلي إلى قراءة الكتب. لم تكن تعاليم الكتب الدينية رغم كثرتها قد أثّرت في سلوكي. كنت أحفظ كلماتها وأردّدها كالببغاء، كما يقال. كلمة الببغاء نفسها بقيت أسمعها وأرددها، بدون أن أعرف ماذا تكون وما تعني. إذا كان هناك شيء جذبني في الكتب فليس سوى الحكايات. ربّما، بسبب هذا الانجذاب، مضيت في حكايتي الخاصة، والتي واصلت التشكّل مع حادثة أخرى وقعت بعد شهرين فقط من قتل جماله.

مكتبة الفكر الجديد

يومها، بعد أن رعينا حتى الظهر، سقنا، أنا والدغلو، الغنم إلى الغَيل لنسقيها ونأخذ حاجتنا من المياه في الزمزميّات.

ما إن وصلنا حتى هرعت الغنم لترشف الماء، فيما راحت الدغلو تفكّ الصرّة لتصبّن الثياب التي فيها على حافّة إحدى بِرك الغَيل. أسرعتُ إلى نزع ثيابي واخترت حفرة واسعة لأسبح فيها.

مثل بقيّة الراعيات تأخذ معها أحياناً صُرّة من الملابس الوسخة لها أو لأحد أفراد أسرتها مع كيس صابون لتصبّنها عندما تأتي إلى الغيل. حين تنتهي، تنشر الملابس على الأحجار الملساء في مواجهة الشمس ثم تغطس في الماء، بدون أن تنزع ملابسها. تظلّ على هذه الحال حتى حين تقف قبالة الشمس لتتجفّف هي والثياب.

نادتني وهي تُغطّس جسدها: «هذي البركة غُريقة. ما تَقْدِرشْ تعوم فيها».

غطّيت ما بين فخذيّ من الأمام بملابسي، وانتقلت إلى البِركة التي كانت تسبح فيها. ألقيت ملابسي جانباً، وقفزت بسرعة إلى الماء، حتى لا أتيح لها فرصة النظر إلى أعضائي العارية .

كانت تبتعد عنّي مسافة خمسة أذرع، أو أقل، فيما حاولت، بحركاتي، أُثبت لها أنّني أستطيع السباحة في هذه البِركة التي تعتبرها عميقة القعر:

مكتبة الفكر الجديد

«أنتِ اللي ما تَقْدِريشْ على السباحة في الغريق، مش أنا».

« إيه. سبحت ببركات أغرق من هذي».

هو ادّعاء، قلت لنفسي، ليس إلاّ، فمعظم البنات والنساء يكتفينَ بالغطس حتى رقابهنّ وهُنَّ لابسات ثيابهنّ على أطراف الغيول، ويدلّكنَ أجسادهنّ بأيديهنّ من تحت ملابسهنّ، فقط، بدون أن يسبحنَ.

مددتُ يدي: «اسحبيني لأطلع». وما إن مدّت يدها حتى رحت أجرّها إلى الزاوية الغريقة. ساعدني الماء على تسهيل سحبها، فيما ظلّت، وهي تكتشف خديعتي، تحاول التشبّث بجسمي، وترجوني: «أنا فداك. سأغرق. أكذب عليك ما أقْدِرشْ أسبح. ما أعرِفشْ. أَنِيْ فداك يا عبدالرحمن».

عدت معها إلى حافّة الغيل، بعد أن كانت بتشبّثها بجسمي قد نصبت عضوي الصغير بشكل واضح.

كأنّ نهديها المبلّلين، هما من يتكلّم، حين قالت بتهدّج مع اهتزازهما: «أنا فداك. الغنم سيهربن. روح تَبِّعْهِنْ[1] وأنا شَكَمِّلْ الغسلة بسرعة وشَتْبَعكْ».

«قد دلَّكتِ كثير. يكفيك غسلة».

«باقي ظهري وأرجلي».

---

(١) اتبعهن.

«شأساعدك بتدليك ظهرك ونروح بسرعة بعد الغنم».

لم أنتظر جوابها، ومددت يديَّ تحت فستانها، وصعّدتهما حتى لامست ظهرها، فدلّكته ماضياً إلى صدرها. واصلتُ تتبّع خيط الإبرة. غافلتها ووضعت أصابع يدي اليمنى فوق بطنها فيما أصابع اليسرى تهرش إبطها. راحت في ضحك كان صداه يعود مجلجلاً من ضواحي الجبل الوعرة. تحسّستُ بقيّة الأعضاء التي تضحكها، لامست حلمتيْ نهديها، ووضعت أسناني فوق رقبتها من الخلف وناوشتُ بأصابعي راحتيْ قدمَيها. كلّما أغرقت في الضحك رميتُ جسمي عليها، وكأنّني أهدف إلى إغراقها ممازحاً، فتعمل على انقلابي من فوقها والهروب منّي.

نبّهتها بعد نوبة ضحك إلى أنّها لم تدلّك رجليها، واقترحتُ مساعدتها في ذلك من أجل الإسراع، فوافقت شريطة عدم إضحاكها.

أدخلت أصابع يدي اليُمنى من كُمّ سروالها فوق القدم، ثم رحت أمدّها فوق الساق لأدلّكها إلى الركبة، ومن أعلى أدخلت يدي الأخرى إلى الخاصرة. بدورها أرخت السروال، وبدأت تمرّر يديها فوق رجليها، ولتواصل يدي مرورها قليلاً قليلاً إلى مفاصل الفخذين وفوقهما وبينهما.

ارتبكتُ إذْ راحت يدي الأخرى تقفز من مكان إلى آخر، من فوق الردفين إلى الحلمتين إلى الرقبة.

في لحظة حارّة من الارتعاش، وجدتني أذوب وأنسكب في

مكتبة الفكر الجديد

فتحات جسمها الذي شدّته فجأة بعدها، وكأنّها تقطع حلماً، أو تحفظ عُمراً كاملاً هو اللحظة نفسها.

قفزت إلى حافّة الغيل، ثمّ ظلّت ترجوني أن ألحق بالغنم، حيث أصبح من الصعب جمع شتاتها.

- ٥ -

لم تمرّ إلاّ أيّام قليلة منذ اللقاء الصاخب لجسدينا، حتّى بدأت الشكوك والمخاوف تنتاب الدغلو من أن يكون مصيرها مثل مصير جماله. لكنّها لم تُطِل في بثّ شكوكها ومخاوفها لي إذْ سرعان ما قرّرت: «علينا أن نهرب بسرعة من الوادي. نروح إلى قرية أو مدينة بعيدة لا يعرفنا فيها أحد، ونعيش هناك».

استعدت في ذاكرتي قبل قراري هذا حكايات ألف ليلة وليلة، وقصص أمّي الليلية، وسيرة سيف بن ذي يزن، وسجالات كتب الفقه التي قرأتها في بيت «سيّدنا الفقيه». بحثتُ فيها عن دليل لموقف أتخذه، لكنّني لم أجد. وحدها الحكاية الوحيدة المحفورة في البال والجسد، وكأنّها تحدث الآن، هي التي دفعتني إلى هذا القرار.

المشهد الأخير منها، حيث كان رأس جماله يتهشّم بالحجارة المقذوفة إليه من حشد الناس الهاتفين: «اللّه أكبر.. اللّه أكبر»، هو ما لا يمكن نسيانه، أبداً.

مكتبة الفكر الجديد

فوجئت الدغلو بقراري فراحت تهذي بعدد من الأسئلة: كيف سنهرب ومتى؟ وماذا إذا رآنا أحد يعرفنا؟ إلى أين سنهرب، وما هي الطريق التي سنمشي فيها ؟ ومن أين سنأكل. و...؟

لم نخطُ خطوتنا الأولى في غبش اليوم التالي إلاّ بعد أن رتّبنا كل هذه الأسئلة، وإن لم نجب عنها كلّها.

أخذنا بعض فطائر الخبز من منزلينا، كما هي العادة، عندما نذهب في الغبش لرعي الغنم؛ وعلى غير العادة أخذنا بعض الملابس الخاصّة بنا. مضينا بين الوديان حتى اعتلينا أقرب جبل وفيه ظللنا نحلب ما تبقّى من حليب تركته لنا أُمّهاتنا في ضرعي غنمتين لنرتشفه مع الفطائر، ومن هناك بدأنا ننحدر في طريق آخر ليس فيه أيّ أثر للعبور من قبل.

تركنا الأغنام ترعى وحدها، ومضينا. نعرف أنّها ستعود في نهاية النهار بدوننا، كما يفعل بعضها، حين يتيه، أو يفقد راعيه.

لم يكن في بالنا شكل القرية أو المدينة التي سنصل إليها، وما كنّا نرجوه هو أن نصل، وليكن بعد ذلك ما يكون. هكذا وجدنا نفسنا في ظهيرة اليوم الأوّل على مشارف قرية لم نعرفها من قبل، لنسمع من سكّانها أسئلة لم تخطر على بالِنا، وأوّلها: من أنتما وإلى أين ذاهبان؟

وإذ كنّا نجيب بأنّنا «طالبين اللّه»، كما يقول المتسوّلون عادة، فإنّ الإجابة عن السؤال الثاني تصبح معروفة لديهم.

مكتبة الفكر الجديد

بيت صغير، من غرفتين، وجدناه أكبر البيوت كَرماً لنا، بالأكل والمنجا والفِرْسِك والموز والبلَس، كما كان كريماً معنا بالأسئلة التي سمعناها مع شهقات ضحك كبيرة من صاحبة البيت ليلى، الشّابّة التي بدت، وهي تعرّفنا باسمها، كأنّها عطشى لكلّ شيء.

أبقتنا حتى جاء زوجها لنتناول الغداء معهما. بدا التُركي، كما تناديه، كثير البياض في جسده، فيما هي تقترب من سُمرة مُشِعّة، سواد مضيء كالجمر. مع مجيئه صرنا نسمع ضحكات تلوّع لاثنين، تصل إلينا من بناء حجري صغير أمام البيت، يستخدمانه للطبخ.

«بدأ الشُغل.. ستأكل وتهدأ»، قالت الدغلو حين بدأت أصواتهما تخفت.

أثناء تناولنا معهما الغداء بقيا صامتين. اختفت تماماً الشهقات المكتومة بالضحك. بل، أكثر من ذلك، بدت ليلى وكأنّها قد خرجت من معركة، لا منتصرة فيها، ولا خاسرة. ظهرت بملامح أكثر اتزّاناً وبهاء، وبضحكات، أو لنقل نصف ضحكات ونصف كلام. لقد صارت أخرى، غير التي رأيناها قبل لحظات ممتلئة بكلّ الأشياء، حتى خيّل إليّ أنّها صحن قصدير جميل وجديد يتدحرج على درجات بيت، من طابق واحد، دون أنّ يقذف به، أو يحرّكه أحد. كما هو حالها عندما راحت تغنّي، فجأة، وهي تودّعنا:

مكتبة الفكر الجديد

«يا شَرْكَسِي
جَعْدَكْ[1] حَرير بِيْنُوسْ[2]
وَطَبْعَكَ الحالي[3]
شرابْ مَخْمُوس[4]
ياشركسي
مَحْلىَ[5] كلامك اِهْدِزْ[6]
أحلى من القِرْفَة
وَمأكَلْ الزِّزْ[7]
ياشركسي
شَرْكَسْتْ من جُهُولَك[8]
مَنْ ذِي جَنَاكْ؟[9]
مَنْ ذِي قَطَفْ زُهُوْرَكْ؟».
سمعتُ جدّي أحمد يغنّي كثيراً مثل هذه الأغاني، التي

---

(١) شَعرك.
(٢) يتمايل.
(٣) الجميل.
(٤) مُنكِر.
(٥) ما أحلى؟
(٦) تكلّم.
(٧) القرنفل.
(٨) أصبحت جميلاً من طفولتك.
(٩) من أتى بك؟

مكتبة الفكر الجديد

تتغزّل بالشراكسة، والشركسيات. لا أعرف من هم الشراكسة؟.
ما بدا لي هو أنّ الجميل يعني الشركسي، والشركسي يعني الجميل.

كانت الضيافة سبباً في تأخرنا. في الليلة الأولى بقينا نمشي في طريق، يمكن وصفها بطريق الموت، ليس لوحشة مسالكها، ومخاوف ليلها فقط، وإنّما لمعاناتنا العطش أيضاً. حين وصل الإرهاق بنا حدّ عدم القدرة على الحركة استلقينا على نتوءات أحجار وحصى، ونمنا.

في اليوم التالي، قرّرنا أن لا نركب أيّ سيارة نقابلها. خفنا أن يكون أحد الركّاب من قريتنا. مضينا نمشي في محاذاة الطريق الإسفلتيّة، وإذْ عرفنا أنّها توصل إلى مدينة تَعِز، فإنّ مقصدنا لم يعد مجهولاً.

عندما بدأنا نخطو في طريق متشعّب يتّجه نحو منازل كثيرة، وهناك سيّارات كثيرة تعبر مسرعة، وناس يمرّون بجوارنا، بدون أن يوجّهوا إلينا أيّ سؤال، أو يلتفتوا إلينا بعيون فاحصة، قلت:

- قال لي جدّي أحمد مرّة إذا دخلت المدينة، لن يسألك أحد من أين، وإلى أين؟ فكلّ واحد في شأنه.

- هل تعني أنّنا وصلنا إلى المدينة؟

لجأتُ إلى الصمت، فلم أكن قد عرفت شكلاً محدّداً للمدينة، لأؤكّد لها أنّ هذه الملامح التي نتحسّسها لأوّل مرّة هي طلعتها الأولى.

مكتبة الفكر الجديد

تزاحمت الأسئلة في بالي وعينيّ وإشاراتي، وبقيتُ غير قادر على التعبير عنها أو البوح بها إلى الدغلو التي كانت تبدو هي الأخرى، في ارتعاشاتها الوجِلة، مزدحمة بالأسئلة.

مضينا نتفحّص وجوهَ المارّة، ملابسَهم، عيونَهم الخاطفة التي تُلقي نظراتها علينا وتمرّ، بدون اكتراث.

كان هناك ما يلفت أو يستدعي التوقّف والانتباه، بالنسبة إليّ، على الأقلّ.

جلستُ على حجر كبير، وبصمت جلست الدغلو أيضاً. رحت أنظر إلى عُشَشٍ أُقيمت على مساحة نصف دائرية في القرب من الطريق التي عبرنا عليها. ربما شعرت الدغلو بما أفكّر فيه. قالت وهي تشير بيدها:

- تشبه عشش الأخدام والرعاة في القرية.

- صحيح، لو نروح إلى عندهم، إذا هم أخدام سنشرب ماء، سنسألهم عن الطريق، هم مساكين.

نهضت من جلستها وكأنها لا تعلن موافقتها على الاقتراح فحسب، بل وتبدأ تنفيذه.

قبل أن نقترب أكثر، أو نحاول المرور أمام هذه العشش، تفحصت عيوننا مكوّناتها المتداخلة من مخلّفات صفائح الزنك وأعواد الأشجار النحيلة، في شكل غرف صغيرة، تسندها أعمدة خشبية مهترئة في الأركان والباب. لا تختلف عن عشش الأخدام في قريتنا، إلاّ من حيث استخدامها بكثرة لمخلفات

مكتبة الفكر الجديد

الصفائح. هناك يستخدمون الخشب والأعواد، وما عدا ذلك فإن روائح تعفّن بقايا الأشياء وتراكم تاريخ قذر بالجوار، علامة على تشابه المُحوّيين هنا وهناك. لا يطلق الأخدام، كما صرت أعرف في ما بعد، على عششهم صفة السكن أو المساكن، والتي تعني الاستقرار وأمان العيش الدائم والساكن. يعتبرون تجمّع عششهم (مَحْوَى) موقتاً، ويصفون أنفسهم بالمحوّيين العابرين.

منظر ثلاثة أطفال حفاة كانوا، بسحنتهم السوداء وثيابهم المبقّعة والمقطّعة، وشعرهم المعجون بالأتربة ، يلعبون بجوار أوّل عشة نقصدها، أكّد لنا أننا أمام محوى للأخدام.

لكنّ اطمئناننا هذا، سرعان ما عقبه فزعٌ، إذْ راح الأطفال يصرخون: «بوبوح.. بوبوح.. بوبوح..بوبوح».

ليخرج، في لمح بصر، عدد من الرجال والنساء وبأيديهم عِصِيّ خشبيّة وجّهوها نحونا. وقد مضى وقت طويل حتى استطعنا أن نُفهمهم أنّنا لسنا وحشين، أو بوبوح، كما عبّر أطفالهم؛ وأنّنا مشرّدان بحاجة إلى شربة ماء ولقمة خبز. تائهان بلا هدف ولا مقصد، سوى العيش، كيفما كان.

كنّا بهذا قد بدأنا ننسج حكايتنا ونصوغها مع بدء ليل راح يسكب سواداً هادئاً على العُشش، يُعيد إليها المُحوّون الذين سينامون فيها.

ولأنّنا جئنا في ذلك الوقت، فقد تقابلنا مع كلّ القادمين إلى

مكتبة الفكر الجديد

ليل العُشش. فتحنا حكايتنا ولم نقفلها. أعطونا ماء لنشرب. ثم تجمّعوا حولنا وسألونا الحكاية. أعطونا فولاً وخبزاً. سألونا، ثم أعادوا الأسئلة نفسها ليسمعنا آخرون، نادوهم ليتفرّجوا علينا.

في وقت متأخّر من الليل، قالت لنا إحداهنّ: «أنتم ضيوف عند محسوبتكم عيشة». وفهمنا أننا سننام في عشّتها. تلك التي كنّا قد سهرنا بجوارها على ضوء فانوس مصفرّ الزجاج.

- ٦ -

صحونا على أصوات أطفال يردّدون في تناغم واحد:

«كُسْ زين

كس زين

أحسن كس في العالم

كس زين».

سمعنا في الغبش حركات هنا وهناك، مناداة بأسماء شتّى تدعو إلى الصحو، وألفاظ لم نستوضح معانيها.

إذْ كنّا في حال إرهاق سفر لا توصف، فإنّنا لم نستطع أن ننهض إلاّ حين أصبحت حرارة الشمس تسفح العرق على جسدينا، بالإضافة إلى سماعنا جلبة عائدين كانوا قد ذهبوا مبكّراً، كما قالوا لنا، يكنسون شوارع المدينة.

جاءت إحداهن، وأخبرتنا أنّ عيشة تركت طفلها عندها وراحت تكنس (امبو). قدّمت إلينا أربع فطائر مقليّة بالزيت، مع

مكتبة الفكر الجديد

كوبين من الشاي الأحمر. قالت إنّها مُحوِّية في جوارنا. تناولنا الفطور أمام العُشّة، فيما الأطفال يجرون أمامنا، وهم يردّدون أغنيتهم.

سألت الدغلو مضيفتنا: «ما اسم مدينتكم؟».

«نسمّيه محوى مُشْ مدينة، محوى زِين».

فتحت عينيها: «هااا. من أجل هذا يغنّي الأطفال: زين.. زين».

هزّت المضيِّفة رأسها موافقة: «أيوه.. أيوه».

«لِمَه يقولوْ كُسْ زين.. من هي زين؟».

«زين مَرَةْ ولا مثلها مَرَةْ. لمَّا كانت تعيش. كان أم أخدام[1] يشبعوْ من ام جوع بفضل كُسّها. يسمّوها أم قمر أسود. وقد ركع أمام كُسّها كم مِن عاصِرْ شَنَبُه[2] مِن اللِّيْ ينخطوْ[3] علينا ويتكلّموْ من نُخَرِهم. أمْبُبوْ. كانوْ يركعوْ. يخضعوْ لنا أوّل ما يدخلوْ محوى زين. ماتت وعمرها ثلاثين سنة. يا حسرة وما عد أحد جا من امبو إلاّ ما ندر».

هكذا عرفنا سرّ كلمات الأغنية، التي يردّدها أطفال المحوى، بطريقة تشبه أداء النشيد الوطني في مدرسة الربوع.

---

(١) أمْ هنا بمثابة الـ التعريف.

(٢) شاربه.

(٣) يتكبّرون.

مكتبة الفكر الجديد

كما عرفنا أن أمبو هو الاسم الذي يطلقونه على المدينة التي يقع محواهم في أطرافها، بل ويصفون به أيّ إنسان غير أسود، حتّى إنّ مقاصد لعبة الأطفال التي شاهدناها بعد يوم من مجيئنا صارت معروفة. في إحداها تجمّع سبعة منهم في ساحة ترابية صغيرة أمام العُشش. وقاموا، بواسطة عود صغير، بخطّ مستطيل على الأرض، بطول ستة أذرع، وعرض ذراعين. قسّموا مساحته الداخلية إلى خمسة مستطيلات صغيرة يتساوى في مساحاتها الأول والثاني والرابع والخامس فيما يبلغ الثالث ضعف مساحة الواحد منها.

بعد حفر الخطوط أخذ أحدهم قطعة حجر صغيرة بحجم نصف الكفّ. رفع رجله اليسرى ملصقاً الساق بالفخذ، دون أن يمسك بها بيده، معتمداً في وقفته على رجله اليمنى.

رمى قطعة الحجر إلى المستطيل الأول، وقفز برجله اليمنى إلى فوقها تماماً، ثمّ قذف بها بجانب من قدمه إلى الأسفل، خارج المستطيل. عاد وقفز إلى أسفل المستطيل، والتقط الحجر بيده ورماه إلى المستطيل الثاني. قفز إلى المستطيل الأول برجله اليمنى، ومنه قفز إلى فوق الحجر في المستطيل الثاني، فقام بقذف الحجر بقدمه من المستطيل الثاني إلى المستطيل الأول، ثمّ قفز فوق الحجر وقذفه من المستطيل الأول إلى خارجه، عبر خطه الأسفل.

إذْ وصل إلى المستطيل الثالث فإنّه رمى بالحجر إلى

مكتبة الفكر الجديد

مساحته، وقفز برجل واحدة إلى المستطيل الأول، ثمّ إلى الثاني، ثمّ إلى فوق الحجر في المستطيل الثالث. ومنه قذف الحجر إلى الثاني، إلى الأول، ثمّ إلى خارج هذا الأخير من الأسفل.

لاحظتُ أنّ المرحلة الرابعة من أصعب المراحل، فهي إذْ تُلزم اللاعب برمي الحجر إلى داخل المستطيل الرابع فإنّها، أيضاً، تشترط عليه القيام بنقلتين فقط أثناء القفز برجل واحدة، الأولى إلى وسط المستطيل الثالث، والثانية من هذا المستطيل إلى فوق الحجر في المستطيل الرابع، والذي عليه، بعد ذلك، قذفه بقدمه إلى الثالث، ويتبعه قافزاً فوقه برجله المستخدمة الوحيدة ثمّ يقذفه مباشرة إلى أسفل المستطيل الأول ويقفز بعده، من الثالث، إلى المكان نفسه.

أمّا المرحلة الخامسة، فتكمن صعوبتها في الخطوتين الأخيرتين. فاللاعب بعد أن يرمي بالحجر إلى المستطيل الخامس، ليتبعه قافزاً برجل واحدة إلى الثالث، ثمّ إلى فوقه في الخامس، عليه هذه المرّة قذفه مباشرة من الخامس إلى خارج الأول، عبر خطه الأسفل، ثم يقوم بالقفز برجل واحدة، أيضاً، من المستطيل الخامس إلى أسفل الأول.

ظهر لنا أنّ اللاعب إذا قام بكلّ الخطوات الخمس، دون تنكيس رجله اليسرى المرفوعة، باستثناء لحظة التوقّف لبرهة بين مرحلة وأخرى لالتقاط الحجر، وإذا لم يتجاوز الحجر مساحة

مكتبة الفكر الجديد

المستطيل المستهدف إلى آخر أو إلى خارجه، أو حتى إلى فوق خطوطه، يكون قد نجا من صفة أمبو التي يطلقها عليه زملاؤه إذا فشل في إكمال اللعبة.

كان الأطفال يفرضون على الفاشل أن يصيح بصوت غريب وغير واضح طوال فترة اللعبة، التي تستمرّ من ساعة إلى ساعتين. عليه، أيضاً، إذا ناداه أحدهم بـ امبو يجاوبه بالصوت نفسه وأن لا يتحدّث بأيّ كلام.

اكتشفت بعد أسبوع من المكوث مع الأخدام أنّني مجرّد أمبو في نظرهم، لا أكبر ولا أصغر، من ذلك، مهما حاولت أن أقدّم نفسي بأنني معهم إلى أبعد حدّ.

أمّا الدغلو فبدت لهم في منزلة بين المنزلتين. فهي أقرب إليهم كونها «مزيّنة». لكنّها، أيضاً، تبتعد عنهم درجة لأنّ لون بشرتها يميل نحو البياض.

تمنّيت على الأطفال أن يتركوني ألعب معهم لعبة المستطيلات لأحاول التخلّص من صفة أمبو؛ أقذف بها مع قطعة الحجر إلى خارج الدرجات الخمس وإلى الأبد. لكنهم ظلّوا يهربون فزعين، كلّما اقتربت منهم.

كانوا من الشهامة بحيث لم يصفوني أو ينادوني في الأسابيع الأولى بـ أمبو، لكنّ أعماقهم لم تكن تحوي، كما ظننت، صفة لي أكثر مُلاءمة عندهم منها.

مكتبة الفكر الجديد

على ضوء سراج زيتي خافت فوجئت بعيشة تخلع فستانها النيلوني الأسود، وتستبدله، بعد أن تعرّت تماماً، بقميص شفّاف مقصوص الكمّين من الكتف. بدت الدهشة على وجه الدغلو لتنزوي في ركن قريب من باب العُشّة، فيما بقيتُ أنا قُبالتها. طفلها عبده عيشة، كما ينادونه، بقي يحبو باتجاهها وهو يبكي. رائحة برازه تملأ المكان مخلوطة برائحة عرق ، تبدو وكأنّها تراكمت في أجواء العُشّة منذ سنين طويلة. سكت بعد أن أعطته ثديها. طلبت منّا تسوية المكان للنوم. لحاف وسخ وممزّق، وآخر لم يتبقّ إلاّ نصفه، مرقّعان بقطع من مختلف أنواع الخِرق البالية، ومخدّات محشوّة بنيس من حصى صغير، وتراب رملي، رتّبناها على أرض مفروشة ببقايا كراتين، يلتقطها الأخدام أثناء تكنيسهم الشوارع وجمعهم للقُمامة.

سحبت ثديها من فم الطفل الذي أغمض عينيه، والتفتت إليّ، بعد أن مدّدته إلى جوارها:

«إجيْ إبزي[1] شكلك جائع».

رأيت استغراباً على وجهها. ضَحكتْ: «مالك[2] خائف. ما بَزتش[3] من قبل. أوه صغير».

(١) تعال ارضع.

(٢) ماذا بك.

(٣) الم ترضع.

مكتبة الفكر الجديد

ولم يدلّها ارتباكي الواضح إلى التوقّف: «هيّا، إجيْ يابْنِيْ».

بدا طلبها كالأمر، حاولتُ التوجه إليها لأرضع؛ جارّاً معي خجلاً كبيراً، لكنّها تراجعت سريعاً: «ابزي من صاحبتك اللي اسمها»، وأشارت إلى الدغلو. رفعت صوتها ضاحكة: «لا حياء في الدين».

اقتربتُ من صاحبتي، تحسّستُ ثديَيها المشدودين، ومددت يدي لأُخرج أحدهما. انحنيت لأمصّه وسط هتاف عيشة وتشجيعها: «يااالله يااالله»[1] لم تهدأ إلاّ بعد أن رأتني أمص نهدَي الدغلو، بارتعاش لذيذ، ومربك.

أفزعني الناموس من النوم، كما أفزع الدغلو، فقمنا نهرش جلدينا من قرصاته المكثّفة. ليلتها قرّرت عيشة، حين صحت على صوت بكاء طفلها، أن نتقارب وندخل كلّنا في كيس واحد يحمينا من الناموس. الغطاء الصغير، بدا غير كافٍ للطفل الذي، على الأرجح، كان يصحو باكياً من قرصات الناموس والجوع معاً.

لم يكن الكيس المُرقَّع من بقايا أقمشة خفيفاً. كان الجوّ حارّاً شديداً، معكوماً ومُثقلاً، مع ذلك، برائحة العرق، وأشياء أخرى.

---

(١) هيّا.. هيّا.

مكتبة الفكر الجديد

التصقنا تماماً لكنّنا لم نهدأ، خاصّة عيشة التي أثار فيها هذا الوضع رغبات تحدّثت عنها أوّلاً بالكلام المرموز: «هذا لا يطاق. اشتعال الذبالة بالنار». ردَدْنا بضحكات هامسة. لم تمرّ لحظات حتى تجاوزت مرحلة البوح بالرغبة إلى فعلها: «يوه. راجل معنا راقد. والذبالة تشتعل. يااالله قم طفِّيها».

في الصباح استيقظت على خرير بول عيشة ورائحة برازها النفّاذة. فتحت نصف عينيّ. كانت تجلس مُقَرْفِصة، لافّة نصف ثوبها الأسفل على خصرها، وتحتها صحن قصديري صغير لاستيعاب ما ينزل منها. أحسّت بحركتي، إذ أدارت رأسها نحوي. لم تأبه، وظلّت على وضعها. نادتني وهي تزحر ما بداخلها:

«يااااالله. قم تجي معي امبو تِطلّب لك عمل».

- ٨ -

في الطريق رأيتها كما لم أرها من قبل. بدت فاتنة . ربّما تجاوزت قليلاً العشرين من عمرها. الخادمات اللواتي كنّ يأتينَ إلى قرية الوادي، أو يُحوِّن في أطراف سوق الرّبوع كانت آثار الأمراض والجوع والفقر ظاهرة على وجوههنّ وأجسادهنّ الموشومة بحروق وتشوّهات.

امتلاء جسدها، أو طولها المتوسّط المشدود، لم يكن هو ما يلفت فيها، كما أنّه ليس وجهها الكمثريّ الشكل، ولا عينيها

مكتبة الفكر الجديد

الساطعتين بما يشبه الضوء والعسل. ما يلفت فيها ليست هذه الأشياء، ولا غيرها من محاسن موجودة فيها. إنّه شيء آخر.

«المليح هو خفيف الدّم، اللي يجذبك»، سمعت هذا القول من أمّي. تساءلت، وأنا أمشي معها بصمت إلى أمبو: هل عيشة خفيفة دم؟ تبدو خفيفة في كلّ شيء. انجذبنا إليها، أنا والدغلو، تماماً. ولم نشعر أنّ شدّة الانجذاب من قِبلنا عكّرت مزاجها أو خِفَّتها. على العكس شعرنا أنّها صارت أكثر خفّة بنا. هل يمكن أن يكون الشخص خفيفاً بالآخرين؟

«يبدو أنّه لا بدّ من خِفّة متبادلة بين الطرفين. وإلاّ لما كنت قد جئت معها باكراً إلى المدينة لأبحث عن عمل»، هكذا قلت لنفسي.

الأخدام يسمّون المدينة وسكّانها أمبو، لكنّني اكتشفت أن لا أحد من سكّانها يتداول هذا الاسم. تَعِز، هو الاسم المتداول عندهم.

يعرف أخدام محوى زين موقعهم عند أُمبو، فيما هؤلاء لم يخطر ببالهم، كما بدا لي، أنّ هناك من ينظر إليهم نظرة مختلفة، عن تلك التي يرون بها أنفسهم، ويطمئنّون إليها.

لم يسبق لي أن مارست مهنة من قبل. شرحت لي عيشة أساليب وطرق الكثير من المهن. رغبت في العمل «مباشراً» في مقهى أُقدّم كؤوس الشاي للزبائن، أو مغسّلاً للصحون في مطعم. قرّرت أن لا أسأل عن عمل إلاّ في المقاهي والمطاعم.

مكتبة الفكر الجديد

قالت عيشة:

- بالنسبة لك الأمر سهل، الخادم لا يمكن يشتغل في مقهى أو مطعم.

- لماذا؟

- يعتبرونه قذراً. نجساً، لا يليق بأمبو السماح له بمسك أواني طعامه وشرابه.

- حتّى إذا تنظّف؟

- حتّى إذا تنظّف. يقولون إنّ الواحد منهم إذا أكل مع خادم سرعان ما يجد الدود في الطعام لأنّه يتناثر من أصابع الخادم. وإنّه إذا لمس مادّة غذائية لا تمرّ ساعات حتّى تظهر فيها الدود.

بقيت أنتظر فتح المطاعم والمقاهي لأبحث عن عمل فيها. احتفظت بتعاليمها حول كيفية طرحي للأسئلة، وطريقة الإجابة عن أيّ سؤال.

في الظهيرة، بعد عشرات الأسئلة والإجابات، حصلت على عمل في مطعم، في مدخل «باب موسى». حدّدوا عملي في البداية برفع الصحون وأواني الأكل من على الطاولات، بعد أن يكمل الزبون وجبته، ووضعها في الممرّ القريب من حوض الغسيل؛ إضافة إلى مسح الطاولات سواء من بقايا الأكل، أو من آثار الغبار، بين وقت وآخر. كان هناك آخرون يقومون

مكتبة الفكر الجديد

بالاستماع إلى رغبات الزبائن وتبليغ الطبّاخ بصوت مرتفع، ثمّ إنزال المتطلّبات إلى الطاولة.

هناك مغسِّل صحون، وطبَّاخ، وعامل على الشاي والماء، ومحاسب، طبعاً.

عملت إلى وقت متأخّر من الليل. في كلّ لحظة أتذكّر الدغلو التي بقيت مع طفل عيشة في العشّة. ماذا يا ترى يكون حالها؟.

قد لا تقلق، إذا عادت عيشة، وقالت لها إنّني، ربّما، وجدت عملاً.

كانت لديّ رغبة في الحديث إليهما عن يومي الأوّل في العمل، عن كل شيء فيه.

لكنّني حين وصلت متأخّراً ومنهكاً، اكتفيت بالقول إنّني وجدت عملاً في مطعم.

وما كدتُ أوضح لعيشة عنوانه، حتى ذهبت في نوم لم أحسّ خلاله بقرص الناموس ولا بحركات أحد.

- ٩ -

بدأت أشتري مأكولات من السوق لأحملها في كلّ ليلة إلى العُشّة. لم يحدّد لي صاحب المطعم راتباً. وبقيت فترة تحت التجربة. كان يسمح لي أن آخذ خمسة ريالات في اليوم، على الأكثر.

مكتبة الفكر الجديد

كلّ ليلة أقطع مسافة لا بأس بها حتى أصل إلى العُشّة. أصبحت الكلاب التي تعيش في أطراف محوى زين، وأطراف المدينة تألفني، فلا تنبح كثيراً، إذا رأتني، ولا تهاجمني.

توصيني عيشة بأن لا أخبر أحداً من أمبو آتني مُحوِّي مع الأخدام.

يوم الجمعة، عادة، أعود مبكراً في أوّل الليل، حيث لا يكون هناك زبائن كُثر.

قالت الدغلو :

- في الظهر طلبت منّي عيشة أن آخذ ابنها وأجلس أمام العشّة، لتجلس هي مع ابن خالها في الداخل.

- هل راحت معه؟

- لا ، جلست معه وحدها كثيراً في النهار. وافتهنوا.

قلقت من خبر ابن خالتها، ليس لأنّه افتهن معها، وإنّما لاحتمال أن تؤدّي بهما علاقتهما إلى الزواج. حينها سنضطرّ إلى البحث عن مأوى جديد.

كانت قد حدّثتني أنها مطلّقة، وأنّ أباها وأمّها قد توفّيا. أخوها سرور الذي كان يقبع داخل السجن، منذ سنتين، هو الباقي من أهلها.

حين عادت، أردت معرفة ما حصل بطريقة غير مباشرة:

«عرفت أن خطيبك جاء اليوم عندك».

مكتبة الفكر الجديد

«خطيبي؟! هو نيّاكي. رهّازي. مش خطيبي».

«خفت أنّكِ تتزوّجيه وتتركينا».

«قلت لك من أوّل. أنا طلّقت زوجي سبع طلقات، ولا رجعة عن الحرّية. هو يجيء عندي. يرى ابنه وينام إذا اشتاق لي. يقوم بإشهار سيف أحمد صغير».

رأت عيشة استغراباً على وجهي.

«سيف أحمد صغير ما تعرفوش؟» سألت، وهي تُقَرِّب جسدها إلى جواري. مدّت يدها اليمنى إلى وسطي، حتى لمسَت عضوي الصغير. أزحت جسمي مبتعداً عنها مع دهشة الدغلو التي صارت مثلي تعرف معنى «سيف أحمد صغير».

قالت: «بسبب سيف أحمد صغير كان زوجي يزعل إذا رآني أتسافط[1] مع واحد. أووف...»

«رأيت الكثير في المحوى يتسافطوا بينهم البين. وما فيش عيب».

«كان زوجي يزعل من سفاط لعبة الأكياس».

«إيش من سفاط؟»

لم تجب، وأخذتني مع الدغلو، بعد أن نوّمت طفلها، إلى ساحة أمام عُشّة مجاورة، وجدنا فيها عدداً من الأخدام، رجالاً ونساء، قد تعرّفنا عليهم من قبل. بعضهم جلسوا متّكئين،

---

(١) أمزح.

مكتبة الفكر الجديد

يقطفون غصون القات ليخزّنوه في أفواههم، والبعض ظلّوا يردّدون أغنية بشكل جماعي، بمصاحبة الطبلة والمزمار:

«لا تحسدون الزّين

وافق الزّين

ما حدّنا؟

القُرص[1] يكفي اثنين

ونصطبح لِجعين[2]

ونكتسي دين

وتنجلي

ما بين غمضة العين».

ومضى وقت حتى انتهوا من تكرارها، حين راحوا، يغنّون، مع رقص جماعي صاخب هذه المرّة:

«يادقيق يارشيق

يازين يا عُنق الإبريق

المحبّة حريق

يازين من غير تحقيق

اللقاء لا[3] الطريق

ما غير نفتق لك الريق».

---

(١) الرغيف الواحد.

(٢) لُقَمَتين.

(٣) إلى.

مكتبة الفكر الجديد

بدا واضحاً تلذّذهم بنطق كلمة «زين» لعلاقتها، ربّما، باسم محواهم ومؤسّسته. اثنان منهم، شابّ وشابة، راحا يرقصان على إيقاع الأغنية بحركات شهوانية ملتاعة.

اقترحت عيشة على الجميع، بعد فترة من وصولنا، أن يلعبوا لعبة الكيس.

كان رجل وامرأة يدخلان في كيس كبير يتّسع لهما، ويتعرّيان داخله تماماً. فيقوم أحد الحاضرين بوضع ثلاثة من السفّير[1] في الكيس، ثم يربطه من رأسه المفتوح بخيط قوي، فتتاح للسفّير قرص الجسمين، في الوقت الذي يعدّ فيه الحاضرون إلى أن يصلوا إلى الرقم ستّة وستّين. بعدها يبدأ الرجل بمحاولة البحث عن السفّير، وجمعها وقتلها، فإذا قتل الثلاثة وحده، وقدّم جثثها كبرهان حقّ له العودة إلى الكيس مع المرأة ومضاجعتها، أمّا إذا قامت بقتل ولو سفّاري واحد معه فإنّ الرجل سيكون عليه، وحده الدخول إلى كيس آخر مخصّص للعقاب، يبقى فيه، بعد ربطه، إلى وقت ساعة القُمْريَّة، التي لم أعرف زمنها تماماً. وإن كانت بدت لي أنّها مصاحبة لموعد نهاية اللعبة، التي تستمر إلى وقت متأخر من الليل.

لاحظت أنّ النساء المبادرات للّعب لم يكن أزواجهنّ حاضرين، أو أنّهنّ غير متزوّجات. واحدة ظهر حبّها لزوجها

---

(١) النمل القارص.

واضحاً فأعاقت رفيق لعبتها عن الفوز ومن ثمّ تجنبت إغضاب زوجها، إذا كان هناك من غضب.

سألونا كثيراً:

- هل ستلعبان؟

قاومت مع الدغلو بشدّة اقتراحهم. اكتفينا بالتشجيع تصفيقاً وهتافاً.

عند عودتنا، قالت عيشة:

- زوجي كان يتّهمني أنّني أعطي السَفِّير بعد أن أقتلهم إلى رفيقي بالكيس لكي يكسب اللعبة ويشهر سَيْف أحمد صغير.

- يعني كان ضدّ أن ينيكك واحد غيره

- لا، هو كان يزعل لأنّ بعض الرجال دائماً يفوزون حين يلعبون معي ويتّهمني بمساعدتهم.

بدون أن أسألها، أو أستوضحها أكثر، ضحكت:

- طبعاً، بعضهم قد جرّبتهم. ما فيش منهم فائدة. وبعضهم.. هذا سرّ.. عندما تلعب معي ستعرف.

في ليلة أخرى عرفت السرّ؛ أصبحت هذه اللعبة هي الوسيلة التي تستخدمها عيشة لتحقيق رغبتها. تقوم الدغلو بدور رقيب اللعبة فتضع السَفِّير معنا في الكيس وتربطه، فأخرج بعد قليل وبيدي جثثها إذا قضت عليها عيشة سريعاً؛ وهي عادة ما تفعل ذلك بدوني، وتسلّمني إيّاها خِفيةً. إذا لم نستطع

الإمساك بالسفِّير، وتأكّدنا أنّنا لن نفوز بالعودة إلى الكيس، كانت هناك طريقة أخرى سهلة، حيث نبقى نتحرَّك داخل الكيس دلالة على أنّنا نبحث عن السفّير، فيما كنّا في الحقيقة نبتهج على طريقتنا.

مكتبة الفكر الجديد

١٩٧٦

- ١ -

كخطف سريع مرّت سنة. لا أدري كيف مضت؟ بقيت أعمل في المطعم نفسه، ولكن كمغسّل للصحون. الدغلو وجدت عملاً كخادمة في منزل مكوّن من طابقين، تسكنه أربع أُسر. كانت تقوم بغسل الملابس لجميع الساكنين، بالإضافة إلى كنس وغسل الغرف والسلالم.

ما طرأ في الأمر هو أنّ أخا عيشة سُرور، خرج من السجن، بعد أن كفله ابن الشيخ الذي كان يعمل عنده، وأصبح يشاركنا في النوم في العشّة.

صرتُ أفكّر كثيراً في ضرورة شراء أو بناء عُشّة تكون لنا وحدنا، أنا والدغلو فقط.

كان سرور مولّهاً بسماع الراديو. قال إنّه اكتسب تلك العادة من السجن. بدأت أقاسمه هذا الوله أثناء جلوسنا في العشّة ليلاً. تابعنا الكثير من الأخبار خاصّة تلك التي ينجزها الرئيس إبراهيم الحمدي بعد أن رفع شعار حركة ١٣ يونيو التصحيحية.

مكتبة الفكر الجديد

اعتبر سرور الحركة فاشلة: «أوامر العفو عن المساجين الذين أمضوا نصف العقوبة وسلوكهم جيّد لم تشمل الأخدام».

تحدّث في جلستنا الأولى عن المساجين الأخدام. أوّلهم القيرعي: «لم يجد أيّ تاجر يضمنه، ويكفله لكي لا يعود للمشاغبة مع زملائه عند كنس ساحة السوق المركزي. جالس أربع سنوات في السجن ينتظر الضمين». أضاف: «لا أحد من التجّار يكفلهم، ولا يوجد أيّ تاجر من الأخدام». بعد صمت: «تصوّر علّوس الخادم دخل السجن بتهمة السرقة وعمره عشر سنوات، وقد تجاوز مكوثه إلى الآن ستّ سنوات لأنّه لم يستطع دفع الحق الخاصّ وقيمته ألف ريال فقط. جاء ليلة إلى عندي وهو يبكي من أحد مسؤولي السجن الذي أرغمه على ممارسة اللواط معه».

يظلّ يسرد حكايات المساجين وكأنه يتنفّس. تحدّث عن شيخ القرية، في الحُجريّة: «أُرغم الخادم سريع على الزواج من إحدى الخادمات ليبدو زوجها أمام الآخرين، بينما الشيخ هو الذي يعاشرها ويحتكرها، ويمنع الزوج من لقائها والاختلاء بها. حين احتجّ سريع ورفض الاستمرار بهذه اللعبة، أرسل به الشيخ إلى السجن بتهمة السرقة».

في كلّ ليلة هناك مجموعة من الحكايات عن المتهمين بممارسة سِحر الزَّار والشذوذ واللواط والقتل والسرقة والتهاون في الخدمة.

مكتبة الفكر الجديد

مع هذه الاتّهامات، قال سرور: «تتلقّى إدارة السجون توجيهات بسجنهم بدون أحكام قانونية، أو قتلهم بدون محاكمة. ويكون هذا بعد أن يتمّ هدم مساكنهم وتشريدهم، وجلدهم، واغتصابهم. وكذا اختطاف بناتهم وزوجاتهم واغتصابهنّ».

عادةً يختتم حكاياته بواقعة أكثر إيلاماً: «توفّي الخادم عائش من منطقة القبيطة بالسكتة القلبية، في ساحة السجن المركزي بتعِز، فور إبلاغه بموعد تنفيذ الحكم، ورغم ذلك حملوه بعد ساعتين، وهو جثة هامدة، إلى ساحة الإعدام وأطلقوا عليه ثلاث طلقات».

- ٢ -

في الليلة نفسها التي سُفك فيها دم اثنين من شباب الأخدام وتمزّق لحمهما، صار لنا، أخيراً، عُشّة خاصّة بنا، وتحمل اسمنا، أعني اسمي الجديد أمبو، الذي صاروا ينادونني به.

مع الأيام، كدت أنسى أنّ اسمي كان يوماً عبدالرحمن؛ حتى إنّ صاحب المطعم الذي أعمل فيه وزملائي العمال تمسّكوا بمناداتي بهذا اللقب، منذ أن جاءت الدغلو ذات يوم لتسأل عني.

احتاروا يومها أمام تأكيدها أنّ هناك شخصاً يعمل في المطعم اسمه امبو. كانت الدغلو،التي وصفت لها مكانه لتأتي

مكتبة الفكر الجديد

إليّ عند الضرورة، قد نسيت تماماً اسمي الآخر الذي كان. وأمام إصرارها نادى المحاسب بصوت عال (يا امبو)، فخرجتُ من مكان غسل الصحون في المطبخ ملبّياً.

قبل أن تُخطّ فرحة اكتمال بناء العُشَّة بالدم الحارّ تطوّع، في الليلة السابقة، ثمانية من شباب الأخدام لتنفيذ العمل. بعد أن طلبت منهم عيشة ذلك. جمعتهم أمام عُشّتها وحدّدت لهم مكان وحدود العشّة. قالت بلهجة موجِّهة: «على أمبو مقابل شُغلكم توفير الفطور والغداء والعشاء، والقات لتخزّنوا من بعد الظهر إلى العصر».

نظرت إلى أطولهم وغمزت بعينها اليسرى، ثم التفتت إليّ: «لا تنسَ الفِسّاخ»؛ وتبعت قولها ابتسامة نادراً ما شاهدتها على شفتيها.

تدبّرت مع الدغلو تكلفة يوم البناء. الوجبات من المطعم الذي أعمل فيه، فهم لن يمانعوا ما داموا سيخصمون قيمتها من أجري الشهري. وستقوم هي بطلب أجرة عملها في الأسبوع الماضي لتوفير قيمة القات.

أمّا الفِسّاخ فلا أعرف، أنا أو هي، ما هو؟

«هو شراب الخمر»، أوضحت عيشة.

«امبو، وما تعرفش الفِسّاخ؟».

قالت: «امبو هم اللي يشربون. يفسّخون به القات. إحنا الأخدام نشربه مزاج، بعد القات أو قبل القات أو مع القات. ما

مكتبة الفكر الجديد

فيش حاجة نبقيها لوقت ثاني أو ليوم ثاني. وقت ما تتوفر القارورة تُشرب. ما فيش وقت. الخادم يومه عيده، كما يقول المثل عندكم».

لم تترك لنا فرصة السؤال عن كيف سنشتري الخمر، ومكان بيعها: «ها، انتبه، تشتري لهم الخمر قبل المغرب. قبل ما يكملون العُشّة. إذا أعطيتهم قبل، سيجلسون يشربون بدون شغل». حدّدت مقصدها: « بعد المغرب أعطني قيمة ستّ قوارير شراب بلدي، وأنا سأروح أشتري. أربع لهم، كل واحد نص، وحَبّة واحدة قارورة لي وسرور، نشمّ الخمر وما نشربوش، مش ممكن. وحَبّة لك والدغلو، مش ليلة بكرة ليلتكم. وحدكم في عُشّتِكم».

كان عليّ أن أطلب مبلغاً، إضافة إلى الوجبات، من المطعم. وحصلت على ما أردته بعد مناقشات مع ابن صاحب المطعم.

أوصلت الدغلو إليهم الوجبات، إذْ راحت تتردّد إليّ ثلاث مرّات لأخذها مني في المطعم؛ وأعطت عيشة قيمة القات لتشتريه لهم.

جئت أوّل الليل، بعد أن سمحوا لي في المطعم بالذهاب مبكراً استثناء. ناولت عيشة قيمة الشراب، وأنا مندهش لما قاموا به في بناء العُشّة، وتوفيرهم للموادّ اللازمة من صفائح الجدران الخارجية والكراتين والعيدان، حتّى تلك المتعلّقة بدكّة النوم

مكتبة الفكر الجديد

وبمجالس الضيوف الترابيّة، والمخدّات الحجريّة المغطّاة بكراتين مبقّعة بأوساخ ليست كثيفة كالتي تكسو كراتين عُشّة عيشة.

مرّ وقت من الليل، ليس بكثير، حتّى اكتظت الممرّات أمام عُشّتنا والعُشش المجاورة، بالعشرات، نساءً ورجالاً وأطفالاً. كلّ خمسة أو ستّة أو سبعة، أو أكثر، كانوا يتجمّعون في دائرة حول فانوس صغير مضاء بذُبالة مغموسة بالقاز (الكيروسين). بعضهم كانت إلى جواره مُسجِّلة تدير كاسيتات الغناء، والبعض يرتشف ببطء شراب الخمر البلدي في كؤوس نُحتت من بقايا قوارير بلاستيكية.

عرفتُ أنّ عمّال النظافة، وهم الأكثر عدداً في المحوى، تسلّموا اليوم أجورهم اليوميّة من إدارة البلدية، بعد مرور شهرين على الموعد المقرّر. بدا هذا واضحاً من خلال حجم تناول الشراب من قِبلهم.

أحدهم ظلّ يطوف على الحلقات وبيديه علبة فارغة من عُلب التونة، يتسوّل بها خمراً. يصيح بصوت عال، ولكنّه كمن يتألّم أو يتأوّه: «قُطرة للّه يا محسنين. ارحموا الظمآن. قطرة واحدة صَدَقَة تدخلكم الجنّة». حين يقومون بإعطائه «قُطَر» قليلة، ينتقل إلى حلقة أخرى، وهو يدعو لهم: «جرّعكم اللّه أنهاراً من الخمر حتّى تنفجر بطونكم. اللّه يدخلكم جنّة من الأوسكي. ولا أراكم شراب بلدي بعد اليوم».

مكتبة الفكر الجديد

في طرف آخر من التجمّع كان ثلاثة شبّان يؤدّون معزوفات موسيقية شعبية بالطبل والإيقاع والمزمار، ويغنّون:

«عَمَرتْ لك مَسْجِدْ

وَصَرْحْ في البَابْ

لأَنتَ المُصَلّيْ

صَلٌ بينَ الاَكعَابْ

. . . .

اثنين كعوب

الحرب بينهن بين

أدخل يدك

ما بينهن يَسُدِّين»

أمامهم امرأة شابّة ترقص مع شابّ، يتحاذّان ويفترقان، يقتربان ويبتعدان. تمدّ رجلها اليمنى، أحياناً، وهي تركل حتى تلامس بساقها فخذه، فيمدّ هو إحدى رجليه إلى ما بين ساقيها، فتقوم بحركات راقصة، وتهتزّ كمن يركب فوق حصان يركض. حين يقترب منها ينزع عنها قطعة من ملابسها . بحركات راقصة يبدأ بخطف غطاء رأسها المعقود حول شعرها الأسود القصير، ثمّ ينزع قميصاً طويلاً عنها لتبرز فنيلّة خفيفة، وفوطة على شكل عُشَّة.

بصخب ظلّ المحتفلون يتنادون، فتداخلت أصواتهم مع الأغاني المنبعثة من أكثر من مسجّلة وصوت.

مكتبة الفكر الجديد

هناك صوت كان يغنّي لنفسه. بدت صاحبته العجوز وحيدة، لكنها بقيت الأقرب إليّ:

«قالوا غزال وأمّها سرعة بنات الخمس

ما بِه خُمْس يا عِباد ما بِه سُدس

سوا سوا ياعباد الله متساوية

ما حد وُلِدْ حُرْ والثاني وُلد جارية

عِيال تِسعة وقالوا بعضنا بيت ناس

وبعضنا بيت ثاني عينه ثانية».

لم تكمل أغنيتها حتى تنهّدت، وقالت كأنّها في حُرقة: «شفاكِ ياغزال المقدشيّة. شفاكِ إلى قبرك». اقتربت منها لأواسيها وأسألها عن غزال. حدّقت فيّ كثيراً، قبل أن تمضي في كلام خافت: «غزال تتعذّب الآن.. كم لها؟ جالسة في قبرها، تتعذّب ما في حد سمعها. تقول: سوا سوا. الناس متساوية، وهم يقولون لها: لا، أنتِ من الخُمس، من الدرجة الخامسة. أمّا نحن الأخدام، درجتنا أسفل. تحت تحت تحت».

لم تتح لي الحديث معها، بدت نائمة.

عدتُ إلى الدغلو إذْ حاولنا أن نشرب، لكن سرعان ما شعرنا بالغثيان والتقيّؤ، فتركنا القارورة لعيشة. قالوا إنّ هذا يحصل لكلّ مَن يشرب لأوّل مرّة.

مكتبة الفكر الجديد

ظلّت الدغلو ملتصقة بي، لا ترغب في أن تتزحزح أو تبتعد ولو قليلاً. كثيرون اتجهوا نحوها. واحد طلب منها أن تعيره فستانها لتلبسه خطيبته أثناء رقصه معها. حين أصرّت على رفضها، ضحكت مرافقته، وبغنج أشارت إليّ: «طيّب ممكن تعيريني حبيب القلب». ابتسمت الدغلو: «إلاّ هذا»، فيما كان خطيبها يجذبها ليمضيا بترنح إلى مكان آخر.

جاء آخر وقال إنّه يداوي الحبوب والحروق في الأفخاذ وبين الرجلين من خلال لحسها بلسانه. طلب من الدغلو أن تخلع السروال ليعالجها. حاولت إقناعه أنّها لا تشكو شيئاً. قال إنّ مرضها ما زال في بدايته، وإنّها إذا كانت خائفة يمكنه القيام بمعالجتها بحضوري.

لم يكفّ عن محاولة الإقناع حتّى لمحته امرأة كانت تمرّ مترنّحة، فنادته متأوّهة: «أوه يا دكتور. أسعفني يا دكتور. لهيب.. لهيب.. لهيب يا دكتور. لسانك يا دكتور. برِّد لي يا دكتور».

قفز مسرعاً إليها، وغابا داخل عُشّة، كان المُحوّون فيها يفترشون، ربّما، هم أيضاً في الساحة.

بدا لي من الروائح والقوارير، أنّ عدداً ليس بقليل، كانوا يشربون نوعاً من عِطر الكالونيا، بعد مزجه بالماء. وشممت روائح أخرى لم أشمّها من قبل.

وفيما السهرة تموج بالصخب، توجّهت كل العيون، فجأةً،

مكتبة الفكر الجديد

لمشاهدة رجل طويل، يقف عارياً تماماً، ويده اليسرى تضمّ كتفي شمعة التي كانت عيشة قد عرّفتني بها.

«الحرتوش.. الحرتوش» ردّد معظم الحضور، وهم يشيرون إليه.

جلست عيشة إلى جواري، وكنت لا أعرف أين هي طوال الساعات الماضية. قالت: «هذا الحرتوش معه سيف أحمد صغير يجنّن، أطول سيف في المحوى. لا تقدر أي امرأة ترفض إذا أراد نيكها». ولم توضح أكثر، فقد صارت تعرف أنني أفهم معنى سيف أحمد صغير.

«هو لا يطلب من المرأة، إنما يجيء إلى عند التي اختارها، ويقول لها وهو يشير إلى وسطه: صاحب الفخامة أصدر قراراً جمهورياً برقم ٦٦٦ بتعيينك ملكة للعرش».

ضحكت كأنّها تشهق بلذّة: «والملكة مكانها الجلوس فوق كرسي العرش. تجلس فوقه. فوق سيف أحمد صغير».

- ألا يعترض الأزواج؟.

- من يستطيع؟

أوضحت: «الحرتوش قويّ. يضرب أيّ واحد يزعجه ويعارضه. يضربه حتى يقارب الموت، لكنّه لا يقتله. الحرتوش شهم مش نذل».

زادت كلماتها في حيرتي، فيما بقيت الدغلو في حال ذهول.

مكتبة الفكر الجديد

«الحرتوش لا يمكن يترك واحد جائع سواء عنده أكل أم لا. مرّة صحتُ في الليل: سأموت من الجوع، حتّى سمعني الجيران فراحوا يخبرونه. لم يمرّ سوى زمن قصير حتى جاء ومعه كرتون مليء بالبسكويت من ثلاثة أنواع، وعصائر منجا، ولم ينسَ أن يأتي بربطة قات صغيرة».

تنهّدت عيشة، ثمّ ضربت بيدها اليمنى على فخذي اليسرى: «أكلت بسكويت، وشربت منجا حتى شبعت. أكل معي الجيران، وحين بدأنا بالقات، تكلّم كبطل كيف راح إلى امبو، اللي يسمّيها تَعِزْ، وكسر قفل أحد الدكاكين الكبيرة. أخذ ما أخذ، و. . . . عاد راكضاً بين الأزقّة، حتى وصل إلينا».

ليست المرّة الأولى التي يقوم فيها بمثل ذلك، فقد عاهد نفسه، كما تقول، ألاّ يجوع واحد في محوى زين وهو على قيد الحياة.

بدأ يؤدّي حركات راقصة وهو يحرّك ما يسمّونه سيف أحمد صغير، يمنة ويسرة، وسط حلقة مكتظّة من النساء والرجال. كان يبدو أنّ الأطفال قد أُدخلوا العُششليناموا، كعبده عيشة، أو ناموا في أحضان أمّهاتهم فأزحناهم جانباً ليستلقوا في الساحة والممرّات.

أمسكت عيشة بيدي وجرّتني لأمشي معها في اتجاهه. لم تستطع انتزاعي بسهولة من يدي الدغلو، التي ظلّت هي الأخرى تسحبني وتمنعني من الذهاب معها. كان الخوف يتطاير من

مكتبة الفكر الجديد

عينَيها، ففضّلت البقاء في مكانها بعد أن أفلتتني عيشة منها.

«سلّمت للحرتوش نفسي. قلت له افعل بي ما تشاء. غضب وصاح في وجهي. قال: تسلّميني نفسك لأنّني أكّلتك. هذه إهانة لشرفي وشرفه. ويقصد بشرفه شرف سيف أحمد صغير. ظننته غضب منّي، لكنّه عاد وضحك: لو أنا أشتيك وعندي رغبة لسمح شرفه. لكن بنت الفروة شمعة تنتظرني. تلهب لهيب، وأنتِ عادك باردة من أثر الجوع»، قالت عيشة، لتضيف بعد لحظة تذكّر: «ليلتها تعلّقت به. كنت أشتي أموت وأنا تحته. لأنّه شهم. وسأفتخر أنّه ركبني. قلت له: شبعت من فوق وجعت من الوسط. هذا القات هيّجني وما شجينيش النوم. أرجوك برِّد لي. قرفصت ورحت أحضن رجليه، أُقبِّل بين فخذيه. فقام سيف أحمد صغير قيامة بطل هُمام. وياليتني لم أقمه أو أقترب منه.. فمنذ ذلك اليوم صار هو كلّ همّي وأحلامي. وأصبحت أكره زوجي السابق بسبب تذكّري لرهزات الحرتوش. حتى أنّه إذا دخلني، لا أشبع ولا أرتاح إلاّ إذا تخيّلت أنّ الذي فوقي وبداخلي هو الحرتوش وليس زوجي».

كان الصخب يعلو أكثر، والحاضرون يقتربون منه. صرنا على بُعد مسافة لا نستطيع تجاوزها من زِحام الأجساد التي أمامنا لنصل إلى مكان قريب نلمح منه الحرتوش، على الأقلّ؛ وليس مشاهدته كاملاً.

أثر الشراب كان واضحاً على عيشة، في حركة يديها

مكتبة الفكر الجديد

وجذبهما لي بشكل مفاجئ وخاطف، بين لحظة وأخرى، وفي كلامها: «لم أشتر سوى قارورة خمر بلدي لي. .قارورة خمر بلدي لك. لا. . حبّة لي وسرور، والثانية التي كانت معك وهي اللي أرجعتها لي، وعزمت عليها أربعة. أما الملاعين، الملاعين الثمانية فقد لحقوا بي. أخذ كل واحد نصيبه، قيمة نص شراب بلدي. راحوا يشترون عطراً رخيصاً، أكثر تسكيزاً من الخمر البلدي. عزموا أصحابهم الذين لم يستلموا الرواتب اليوم. أعطوهم من قلص أو قلصين حاف، حتى سكروا كلّهم. . كلّ من في محوى زين».

عادت إلى سيرة ولهها: «يعجبه مثل هذه المناسبات التي يفتهنوا بها في المحوى. يأتي بما يقدر عليه هو ولا يقدر عليه غيره. بلمح البرق يروح ويزيد في شراء الشراب. يدبّر من أيّ مكان. يعجبه أن يرقص هكذا حتّى يتعب وينام. . أحياناً ينام في المكان الذي رقص أو جلس فيه. لا أحد يقترب منه حتّى وهو نائم الناس يخافونه».

ترتعش، وهي تضحك: «إذا أعجبته امرأة، يصدر صاحب الفخامة قراراً بتعيينها ملكة أبدية على العرش. لكنّه سرعان ما يفكّ منها، بعد أن يقضي أمره ويفرّغ شحنته».

حين صرنا على بعد مسافة من الدغلو، جذبتني عيشة؛ ولم أجد نفسي، في خطف خطوتين أو أكثر، إلاّ وأنا داخل عُشّة لم أدخلها من قبل، حيث حوّلتني كالعجينة بين يديها.

مكتبة الفكر الجديد

كان هناك فانوس معلّق يضيء بخفوت وجهيْ طفلين نائمين. لا أدري لماذا لم يحملوه كغيره لإضاءة إحدى زوايا تجمّع الليلة؟

مقاومتي لرغبتها الجامحة لم تفلح إذْ راحت تنزع ملابسي، وهي تتلوّع احتراقاً، وتلتهمني قُبلاً.

لكنّ الصراخ العالي الذي تردّد بين أجواء الحاضرين، فجأة، كان كفيلاً بأن يهزّ النشوة وفقاقيعها في جماجم المحوى. فما حدث بدا مهولاً.

أحد الشباب كان يهوي بفأسه تجاه شاب آخر. يضربه على كتفه وخاصرته ورقبته، ثمّ على ظهره ورأسه، ولم يتوقّف، حتى بعد أن أسقطه كتلة من لحم ودم على الأرض.

المشهد لم ينته عند هذا، فقد قفز شاب أطول منه، وقبض بيديه جسد الشاب، وبلحظة كرفّة جفن، انتزع منه الفأس، وراح يضربه بها، بالطريقة نفسها التي كان يُضرب بها الأوّل.

تدفّق الدم وتقطّع اللحم والعظم؛ وأثناء تدخّل الحرتوش، فقط، تراجع الصخب وهدأت أصوات الفزع .

لم يتحدّث أحد عن سبب آخر وراء ما حدث، غير القول إنّ السُكر هو السبب. وفيما لوحظ الشاب الثالث في قبضة يد الحرتوش، الذي راح يسحبه خلفه، وهو يمشي مبتعداً، قام عدد من الحاضرين بلمّ الجسدين المقطّعين، ومضوا يحملونهما باتجاه الطريق نفسها.

مكتبة الفكر الجديد

صحوت في اليوم التالي على تذكّر أحداث الليلة الماضية وصخبها. لم تكن لديّ رغبة في أن أتفحّص أكثر مزايا العُشّة التي صرت أنام فيها مع الدغلو. أعرف أنّ الحدث كان يمكن وقوعه لأيّ سبب. مع هذا، لم أصدق أنّه لم يكن هناك أيّ سبب آخر أدّى إلى الاقتتال، غير ما اقتضته اللحظة من غضب الأول على طريقة حديث الثاني، فقام الثاني بقتله، ليثأر ثالث، ويقوم بقتل قاتل الأول.

كانت الدغلو تتململ مستلقية، وكأنّها تنتظرني أن أصحو أوّلاً وأنهض لأناديها.

لا رغبة لديّ في الكلام. ما حدث مع عيشة أيضاً كان يثير أسئلة حول علاقتي بالدغلو، وإن لم تكن هي المرّة الأولى التي تستأثر فيها بجسدي. لقد عملت على بناء العُشّة لكي لا نبقى معها بوجود سرور، الذي بدأ يتقرّب إلى الدغلو ويتوعّد جسدها إلى فرص أخرى.

فكيف انزعجتُ من محاولات التقرّب هذه، فيما استسلمت أنا إلى عيشة، ولبّيت دعوة جسدها، وكأنّ ليس هناك امرأة أخرى ترافق حياتي.

فتور وإرهاق أبقياني مستلقياً، على الرغم من توقّع غضب صاحب المطعم على تأخري.

مكتبة الفكر الجديد

صوت سرور كان كفيلاً بنهوضي من خدر هذا الفتور.

قال، وهو يجلس على أحد الأحجار الملساء التي وضِعت كمتكأ في العُشّة: «جئت أهنّئكم بالعُشّة. أمس شربت كأسين مع عيشة ورحت. كان عندي شغل مع المطوِّع. بعت له سبع عشرة قارورة شراب بلدي. كسبت بعد كل قارورة ريالاً. وأعطاني أربعة من المشترين أربعة ريالات. كل واحد ريال مكافأة منهم».

كنت قد انتبهت لغيابه أمس، ولم يُتح لي الصخب السؤال عنه.

«عندي واحد وعشرون ريالاً. لا أعرف ماذا أعمل بها. رجعت إلى عند المطوّع لأشتري قارورة وأجيء إليكم. قال لي إنّه باع كلّ ما عنده. وأرغمني على البقاء معه في بيته. اعتذر وقال إنّ الوقت بعد منتصف الليل وهو خائف لو يحصل لي مكروه إذا مشيت وحدي في هذا الوقت. كان يريدني أنام معه. ليس حبّاً لي».

حاولت الدغلو أن تتزحزح إلى باب العُشّة، وكأنّها تبحث عن شيء ما. اقترب سرور إلى الدكّة التي أجلس عليها، وخفض صوته: «هو لوطي. مخنوث. يبيع خمر بلدي وخارجي».

اختفت الدغلو خارج العُشّة. أردتُ القول إنّ البول يضايقني، أحسُّ أنّه سينفجر من وسطي، لكنّه فسّر امتعاض وجهي، ربّما، بأنّه استغراب واستنكار على ما يقوم به المطوِّع،

مكتبة الفكر الجديد

إذ راح يؤكد: «الحقيقة.. الحقيقة.. هو مطوّع صح. ما يترك أي فرض. يصلّي الفروض الخمسة، ويزيد كمان يصلي صلاة الضحى، وصلاة بعد العشاء، نسيت اسمها. ويصوم يوم الاثنين ويوم الخميس أسبوعياً. لكنّه.. لكنّه ما ينساش حقّه من الدنيا فلا يصوم منها لو حصل ما حصل، فشعاره ساعة لربّك وساعة لزبّك. هو يقول هذا الشعار للذين هم أمثالي، أما هو فيعمل ساعة لربّه وساعة لطيزه، وساعة ثالثة لجيبه، يجمع فيها الفلوس من بيع الخمر».

قلت: «سأروح أبول. وأرجع أسمعك». حاول أن يبقيني، مع هذا: «ها. ها. أعرف إنّك زعلت هو أمبو مثلك. لكن أقسم لك. أنا لا أكرهه. هو حرّ يفعل ما يشاء بنفسه. كما، أنا لا أحسده على النعمة التي هو فيها. مابك.. زعلت. ها؟».

خارج العُشّة وفي زاوية غير ظاهرة لمحتُ الدغلو تتبرّز، وقد رفعت فوطتها إلى خصرها، وقرفصت نصف عارية.

تدبّرت أمري، أيضاً، وعدت إلى العُشّة مسرعاً لسماع سرور، إلاّ أنّه كان قد غادرها، فقرّرت الذهاب إلى المطعم.

في الطريق تذكّرت ما حدث له، بعد أسابيع من خروجه من السجن. يومها أراد أن يدخل إلى مسجد العربدي، القريب من المطعم الذي أعمل فيه، ليصلّي صلاة المغرب. رغب في اختبار تعاليم الإسلام التي اطّلع عليها، لا تنفيذها، كما قال لي في ما بعد.

مكتبة الفكر الجديد

سرور يردد دائما أنّه يدين للشيخ الفقيه، كما يسمّيه، تعلّمه القراءة والكتابة حيث ظلّ أثناء خدمته له يسترق بعض الوقت ليمكث مستمعاً إلى ما يقوله الشيخ للأطفال الذين يفترشون أمام بيته كلّ صباح ليتلّقوا دروسه. كانت هذه الدروس، كما يقول، تكفيه لكي يصبح قادراً على قراءة أيّ كتاب يحصل عليه، كتلك الكتب التي صارت نافذته في جدران السجن، حين أمضى أيّامه بقراءة كل ما بحوزة المساجين السياسين من كتب ماركسية، بعثية، ناصرية، اخوانية اسلامية، أدبية وفكرية.

في المسجد، وبعد أن تنتهي الصلاة خلف الإمام بلحظات، يتجمّع المتأخّرون، عادة، في إحدى الزوايا؛ يختارون إماماً من بينهم، كيفما اتّفق، ويؤدّون الصلاة خلفه. أحياناً يكون هناك أكثر من صلاة جماعية في المسجد نفسه، خاصّة إذا تأخّر عدد آخر فكوّنوا جماعة ثالثة أو رابعة.

ما حدث أنّ سرور دفع بنفسه إلى مقدّمة أحد صفوف المصلّين المتأخّرين ليكون إماماً لهم. لكنّه ما إن بدأ بتلاوة الشعائر حتى أمسكه أحدهم من عضده وجذبه إلى الخلف صارخاً: «أعوذ باللّه. آخر الزمان يؤمّ بنا خادم»، فانتبه إليه بقيّة المصلّين، وراحوا يدفعونه إلى باب المسجد، وهو يصيح: «أين المساواة.. أين قول النبي لا فضل لعربي على عجمي، ولا عجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلاّ بالتقوى. أين. أين؟».

مكتبة الفكر الجديد

ووسط تجمُّع عدد من المصلّين، وآخرين كانوا بجوار المسجد، ليستفهموا عمّا حدث، ربّتَ رجل ذو لحية مُشَذَّبة وثياب بيضاء أنيقة كتفيه، وهو يقول له: «معك حق. . معك حق»، ثم أمسكه بيده ومضى به معه.

قال سرور، في ما بعد، إنّه صار يعمل مع هذا الشخص الذي أسماه المطوّع. فهل هو نفسه الذي تحدّث عنه؟

كنت أظنّ أن شخصيته تثير دهشة كلّ من يستمع إليه سواء تحدّث عن تجاربه، أو عن أيّ شيء، لكنّني وجدت، قبل ثلاثة أيام من حادثة المسجد، أنّ معايشته ومشاهدة تجاربه أكثر إدهاشاً من الحديث عنها؛ فقد طلب منّي صاحب المطعم الذهاب إلى أحد بيوت الحارة المجاورة لآتي بأوعية وصحون، سبق وأن أخذ فيها سكّانها وجبة فطور، فرأيت سرور في أسفل منحدر، يرفع فوطته المؤتزر بها ويكشف عن نصفه الأسفل، كلّما ألحّ عليه أطفال ظلّوا يجرون خلفه، ويهتفون بصوت عال: «صورة. . صورة».

كان عضوه يستدير معه، بحركة مدرّبة كلّما التفت إليهم، كأنّه يلتقط لهم صورة، ويعود إلى إسدال الفوطة على ساقيه، ويمضي. بقيت أرقبه من بُعد. أخذ حصى صغاراً وراح يرمي بها الأطفال حتّى هربوا منه وغابوا في أحد الأزقّة.

زقاق الحارة كاد يكون خالياً، وتأكّد لي أنّ أحداً لم يلحظ وجودي في الزاوية الأخرى للممرّ، والتي ترتفع تسع درجات

مكتبة الفكر الجديد

حجريّة عن الأرض المنخفضة؛ فقد لاحظتُ امرأتين كانتا تهمسان له «صورة. . صورة»، من خلف فتحة ستارة في طرف شبّاك منزل قريب من المنعطف الذي ذهب منه الأطفال. وما إن رفع فوطته لالتقاط الصورة، حتى أسرع بدلق باب البيت، ودخل غير عابئ بما إذا كان هناك من يرقبه أم لا.

مكتبة الفكر الجديد

١٩٧٧

- ١ -

ابن شموس مات بعد أن بقي يبول دماً لمدّة أسبوعين، وكان في الثامنة من عمره تقريباً.

كاذية بنت المسفوح في العُشّة المجاورة لعُشّة شموس كانت أكبر، ربّما في العاشرة، ماتت بعد سُعال دام لأشهر، وقالوا إنّه السّل.

بدأت سنة حزينة. كان الشتاء كعادته مليئاً بأخبار موت الأطفال المفزعة. الصيف جاء أيضاً، ومعه البلهارسيا والملاريا.

لم يكونوا في العُشش يرهبون الموت، حين يعلمون بوفاة رجل أو امرأة بلغا الثلاثين من عمرهما، أو أقلّ من ذلك ببضع سنوات. يعتقدون أنّها كافية لعمر الخادم، وأفضل له من بقائه وهو يتعذّب من الأمراض التي تهاجمه طوال عمره، وتصبح صعبة الاحتمال بعد سنّ الخامسة والعشرين، وأصعب بعد الثلاثين.

مكتبة الفكر الجديد

العرطوط مات، أيضاً، وكان أشهر مريض بالصرع في المحوى.

يعتقد سرور أنّ الموت طبيعي في ظلّ حياة قذرة كهذه: ننام مع أوساخنا بلا حمّام. نتبرّز ونبول في الأماكن نفسها التي نأكل فيها ويلعب فيها الأطفال. ملابسنا لا نغيّرها إلاّ حين تبلى من الأوساخ وتتقطّع وتسقط عن أجسادنا من ذات نفسها. وإذا لم نجد بديلاً منها نبقى عُراة، لا شيء يسترنا. حتّى إنّنا لو مشينا شبه عُراة في المدينة لا أحد يأبه لنا ويكسونا. يقولون إنّ هذا أمر طبيعي بالنسبة إلينا كأخدام.

تساءل، وهو لا يتوقّف، إذا كان هناك ما يحفّزه على الكلام، أو وجد من ينصت إليه، على الأقلّ: كيف لا نموت ونحن نشرب الماء الملوّث من المستنقع، ونأكل، أكثر ما نأكل، من الزبالة. نحترق بأدخنة الفوانيس ومحروقات القمامة. هل سيجيء يوم يكون لدينا فيه بيوت وكهرباء ومواسير مياه تصل إلى بيوتنا، مثلنا مثل الناس الباقين؟.

تنهّد، ثمّ ضمّ أصابعه اليمنى بشدّة، كمن أصرّ على فعل شيء: إذا أردت الإجابة منّي فأنا أعتقد أنّ ذلك اليوم لن يجيء أبداً. لم يعد لديّ أمل. أعيش كأنني ميّت. مستعدّ أن أتقبّل الموت سواء جاء مع مرض أو طعنة أو رصاصة.

يوافق سرور أخته، فيرفضان أن أعلّم عبده عيشة، الحروف الهجائية وأرقام الحساب التي تعلّمتها في «معلامة» القرية وفي

مكتبة الفكر الجديد

المدرسة: هل تريده أن يتعلّم في المدرسة، مثل الآخرين، أنّ اللون الأسود في العلم الوطني للدولة يرمز إلى عهد الظلام البائد، قبل إعلان الثورة والجمهورية. وأنّه يرمز إلى كلّ ما هو قبيح وبشع ومرعب وسيء. كيف يمكن ذلك؟

كان عبده طفلاً ذكيّاً وكثير الأسئلة؛ وحين صرخت أمّه في إحدى الليالي معلنة موته، راح سرور في بكاء مؤلم، كأنّه شخص غير ذلك الذي سمعناه يتحدّث عن الموت، غير مبالٍ به، متى وكيف جاء.

رفضت عيشة أن يأخذ أحد جثّة ابنها، أبقته في حضنها عدّة أيام. بعد ذلك قيل لنا إنّها دفنته أمام مرقدها، في العُشّة، ليبقى إلى جوارها.

- ٢ -

لم نعد نعتقد، مع مرور الأيام والأسابيع، أنّ بإمكان عيشة العودة إلى البهجة التي عُرفت بها.

كانت الدغلو هي الأقرب إليها، فبقيت تذهب إليها وتعتني بها كلّ ليلة وصباح.

رأيت أنّ من واجبي، أيضاً، الذهاب لمواساتها بين وقت وآخر. رحت إليها، وكان فانوسها مطفأ. لا حسّ يخرج من جسدها الذي رأيته بصعوبة، حين أشعلت عود كبريت وأضأت به فانوسها المكسو زجاجه بالدخان.

مكتبة الفكر الجديد

جلستُ إلى جوارها، وضغطت على ساعديها وكتفيها، ثمّ مسحت وجهها. ناديتها: «عيشة.. عيشة»، وأنا أمضي في تدليك جميع جسمها، صدرها وفخذيها وساقيها، وقدميها. لم تكن تجيب، ورحت أحاول فتح فمها لأصبّ قطرات من عصير المنجا الذي أتيت به. ما إن تمكّنتُ من إدخال جرعات من العصير إلى جوفها الخاوي، وعدت إلى تدليكها من جديد، حتّى بدأت تتحرّك شيئاً فشيئاً، ونطقت بكلمات غير مرتّبة ظلّت تهذي بها. حين أحسّت بوجودي رمت رأسها في حضني، وبقيت تبكي بتهدّج إلى أن نامت من جديد.

بعد شهر، أو أكثر، من تلك الليلة، لم أصدّق ما قالته الدغلو من أنّ عيشة جاءت إليها في أوّل الليل مبتهجة وكأنّ شيئاً لم يحدث لها: قالت إنّها حُبلى بطفل جديد، ولم تُفصح عن اسم أبيه.

لا أدري لماذا ذهبتُ إلى عيشة بعد سماعي الخبر مباشرة؟

هل كان الأمر يعنيني إلى هذا الحدّ؟

لم تقل لي أيّ شيء. اكتفت بالضحك، وكما يفعل الأطفال، حين يغيظون الآخرين، أو يسخرون منهم، أخرجت لسانها وصوّبته باتجاهي.

مكتبة الفكر الجديد

١٩٧٨

- ١ -

لم أكن أرغب في مناقشة هذا الموضوع مع عبداللّه ابن صاحب المطعم، لارتباطي به؛ مع هذا، فقد حدث وفاض فيه الكلام.

كان مهتمّاً بالقراءة، وعادة يقضي فترة ما بعد الظهيرة إلى العصر مع الكتب، إضافة إلى ساعتين أو أكثر قبل النوم، كما قال لي.

رأيت لديه دراسات ومقالات في عدد من المجلاّت عن الأخدام وأصولهم وتاريخهم وحياتهم. جلستُ في عصر أحد الأيام إلى جواره حيث بقي على كرسي في المطعم متّكئاً على الطاولة وهو يُقطِّف أعشاب القات القليلة، التي يناوله إياها أبوه، ويقوم بتخزينها في فمه أثناء قراءته في فترة الاستراحة.

طلبت منه مجلّة فأعطاني واحدة اسمها «دراسات يمنية». قلّبت صفحاتها، حتى وصلت إلى مقال عن الأخدام، كتبه عبده

مكتبة الفكر الجديد

علي عثمان. كان الأمر يعنيني، طبعاً. قرأت المقال بتمهّل وتركيز، وما إن انتهيت منه حتى وجدتني مكتظّاً بأسئلة لا حدّ لها.

لاحظ عبدالله اهتمامي بهذا الموضوع، فأخذ مجلّة أخرى اسمها «الحكمة» وفتحها على صفحات موضوع كتبه عبدالرحمن الحضرمي عن الأخدام، أيضاً، وناولني إيّاه.

حين رآني أعاود التركيز على مقال عبده علي عثمان، قال: «سأخبرك عن هؤلاء الأخدام المساكين. هذا الكاتب من أوائل من اهتموا بالأخدام. قدّم دراسات وأبحاثاً عنهم في جامعة القاهرة، وهذه أوّل دراسة يتم ترجمتها من لغة أخرى عن الأخدام، ناقشها ووسّعها في التحليل. قبل أربع سنوات عيّنوه وزيراً للبلدية والإسكان. أيّامها، كما سمعت، كان هناك مائتان وخمسون من الأخدام في صنعاء، يعملون مُكنِّسين للشوارع. اهتم بهم، وضاعف أجورهم لتصبح مائة وثمانين ريالاً. ثبّتهم بأجور وظيفية شهرية وليس بالأجر اليومي، كما كانوا من قبل. أتدري ما عملوا؟ قال لي ابن عمّي: أحدهم أراد قلب كرسي الوزير ليجيء بدله فأشاع أنّه أقرّ ضريبة مالية على الأخدام. صدّق هؤلاء، وقاموا بأوّل مظاهرة لهم في صنعاء. ضِد من؟ ضد من هو في صفّهم. (لا ضريبة بعد اليوم) هكذا ظلّوا يومها يرددون في ساحة الوزارة. لم يكن لدى عبده علي عثمان ما يقوله، وقد ظهر أمامهم ليفهمهم أنّ لا صحّة لما سمعوه.

مكتبة الفكر الجديد

الضجيج كان عالياً. بقي الوزير يخاطبهم بكلمة لم يسمعوها من قبل. يخاطبهم كإخوته: أيّها الإخوة.. أيّها الإخوة.. أيّها الإخوة.. أيّها الإخوة. لم يسمعه أحد منهم، وهو لم يتوقف. ظلّ يناديهم: أيّها الإخوة».

لم يكتف بذلك. بعد لحظات أعطاني قُصاصة صحافية، لا أدري من أيّ صحيفة تمّ قصّها، إلاّ أنّ موضوعها كان عن الأخدام واسم كاتبه سيف علي مُقبل.

حين جاء موعد المرحلة الثانية من العمل في المطعم، وتوافد العمّال لأداء أعمالهم، طلب منّي عبداللّه أن أُكمل قراءة المواضيع، ولا أقوم بما هو مطلوب مني يومياً، في مثل هذا الوقت.

ظهر لي شخصاً طيّباً لم آلفه من قبل، بل يمكن القول إنّه صار صديقاً. أشعرني بذلك وهو يأخذ صحن الفاصوليا الكبير، ويقوم بالنيابة عني بتنقية حُبيباته من الحصى والأحجار الصغيرة.

بعد أن أكملت قراءة المواضيع، لم يمهلني لحظة في التفكير فيها، واقترب يسألني رأيي، وكيف أنظر إلى الأخدام؟

حاولت أن أخفي ارتباكي، وعدم قدرتي على استخلاص رأي واضح ممّا قرأت. اكتفيت بترديد بعض ما جاء في المواضيع مسبوقاً بعبارة «هذا كلام غريب»، أو«ما قاله من أنّ الأخدام هم... مُدهش ويحتاج إلى نقاش كثير».

هكذا أفلتّ من مقتضيات ارتباك اللحظة، وقمت بإنجاز

مكتبة الفكر الجديد

المطلوب مني في المطعم، على أمل أن أعود لقراءة هذه المواضيع ثانية.

حصل هذا في ما بعد، لكنّني لم أخرج بنتيجة؛ ففي جانب أصول الأخدام وتاريخهم تعدّدت الآراء حدّ التناقض. فمن قائل إنّ أصولهم أفريقية، وإنهم جاءوا إلى اليمن مع مجيء الأحباش الأثيوبيين لليمن عام ٥٢٥م، وقائل بأنّ أصولهم يمنية، وأنهم يُعتبرون من أحفاد الحِمْيَرَيّين القدماء. وانفرد الفرنسي ت. أرنود بالقول إنّ الأخدام من أصول هندية، وذلك في مقال له نُشر عام ١٨٥٠.

هناك من ظنّ أنّ أصولهم تعود إلى خليط من الأثيوبيّين والأريتريين والهنود والعرب.

عبداللّه له رأيه الخاص عن أصول الأخدام.

صرت أدين له بالكثير من معارفي وثقافتي التي حصلت عليها من خلال الكتب والمجلاّت التي أعارني إيّاها. بدا مختلفاً إذْ أخذني عصر ذات يوم إلى مكتبة المركز الثقافي ليطلعني على الكثير من المراجع والكتب الأدبية، واتّفق مع أمين المكتبة على إمكانية استعارتي للكتب. كان ذلك ميلاداً جديداً لي، فالقراءة كشفت لي أشياء كثيرة بما فيها حياتي أنا، التي صرت أرويها هنا، ربّما، بتأثير من هذه الكتب.

قال عبداللّه: هناك رأيان، الأوّل يقول إنّ الأخدام هم

مكتبة الفكر الجديد

أسرى الحرب الذين استولى عليهم جيش الملك سيف بن ذي يزن بعد إنهاء الاحتلال الحبشي الثاني لليمن من٥٢٥ إلى ٥٧٤م، وتمّ تحويلهم إلى عبيد. أمّا الرأي الثاني فيرى أنّ فئة الأخدام تكوّنت من بقايا الحبشة، الذين كانت دولة آل زياد في القرن العاشر، في زبيد، تشتري معظمهم كعبيد، وتعتمد عليهم في العمل بفلاحة الأرض، وفي الجيش والإدارة، إضافة إلى الأحباش الذين استقدمهم آل نجاح في ما بعد لتدعيم دولتهم التي استمرّت من ١٠٢١ إلى ١١٥٩م وتأسّست في زبيد بقيادة نجاح بعد انهيار دولة الزياديين. كان آل نجاح، يعتمدون في صراعهم مع الصليحيين والمهديّين على روابط العِرق والعنصر الأسود.

بعد لحظة، تذكّر: من جانبه، كان عليّ بن مهدي الرعيني في صراعه مع آل نجاح يستثير العنصر العربي، ويعتقد أنّه يكافح من أجل الكرامة الوطنية. وأقسم في إحدى خطبه أنّه سيفني من أسماهم بالحبشة، وسيحوّل من بقي منهم إلى أخدام.

راح يقلّب صفحات دفتر بدا أنّه يُسجِّل فيه ملاحظات. توقّف عند صفحة، وقرأ بصوت عال: «والله ما جعل فناء الحبشة إلاّ بي وبكم، وعمّا قليل، والله تعالى سوف تعلمون، والله العظيم ربّ موسى وهارون إنّي عليهم ريح وصيحة ثمود، وإنّي أُحدّثكم فلا أُكذبكم، وأعدكم فلا أُخالفكم، ولئن كنتم أصبحتم اليوم قليلين لتكثرن، أو وضيعين لتشرفن، أو أذلاء

مكتبة الفكر الجديد

لتعزن، حتى يصيروا مثلاً في العرب والعجم، يجزي الذين أساءوا بماعملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فالأناة الأناة، فوحقِّ اللّه العظيم على كلّ مؤمن موحّد، لأُخدِمنَّكُم بنات الحبشة وأخواتهم، ولأخولنّكُم أموالهم وأولادهم».

ذلك هو قسم علي بن مهدي، أوضح عبداللّه، الذي قال: إنّه صار كاللعنة التي أصابت هؤلاء، منذ أن تأسّست الدولة المهديّة في يوم الجمعة الرابع عشر من رجب سنة أربع وخمسين وخمسمائة للهجرة، فقامت بإخضاعهم بالعنف، واتّخاذهم خدَّاماً يقومون بأداء المهن المحتقرة، وتشريدهم إلى أماكن قذرة، لا يستطيعون الخروج منها بسبب حصار المجتمع لهم، ونبذهم بعيداً عنه، إلى خارج المدن والقرى، منذ ذلك الحين حتى الآن.

واصل البحث في دفتره، وقرأ: «أعلن منادي المُكرَّم بن علي الصليحي رفع السيف، وانتهاء الحرب، لكنّه، قال للجيش: اعلموا أنّ عرب هذه التهائم يستولدون الجواري السود، فالجلدة السوداء تعمُّ العبد والحُر، ولكن إذا سمعتم من يسمّي العظم عزماً، [أي عدم القدرة على لفظ الظاء، شرح عبد الله]، فاقتلوه، فهو حبشي، ومن سمّاه عظماً فهو عربي، فاتركوه».

تنهّد، وقال: «إنّها كراهية لا تُطاق»، وكرّر: «كراهية لا تُطاق»، كأنّه يريد أن يُسجّل موقفاً، أو يؤكّده.

مكتبة الفكر الجديد

نقلتُ إلى سرور ما سمعته وقرأته من آراء حول الأخدام.

كان يجلس، تلك الليلة، في عُشّة عيشة متكئاً على حجر مغطّى بكرتون، وهو يُقطّف القات ويُخزّنه في فمه. صمت كثيراً، على غير عادته، قبل أن يُعقّب على ما قلته. فيما عيشة تجلس قُبالته. تتحدّث عن أشياء كثيرة لا حدّ لها. تقاسمه القات وجرعات الخمر، التي امتلأت العُشّة برائحتها.

أشار سرور بيده إليها لتصمت. راح يشرب جرعات من القارورة البلاستيكية التي أمامه، وكأنّه يتهيّأ للحديث: «هذا كلام امبو.. هم يقولوا هذا.. يختلفوا إذا كنّا من أصول أفريقية أو يمنية.. هل نحن من الإنس أم من الجنّ.. خلقنا اللّه أم الشيطان.. ليقولوا ما يقولوا.. ليقولوا إننا خُلقنا أو جئنا حتّى من جُحْر الحمار. هذا لا يهمّ. لا نهتمّ إذا كنّا من أصل الذهب أم من أصل الخرى».

أخذ القارورة من أمامه، وناولني لأشرب منها. اعتذرت له، لكنّه ظلّ يلحّ عليّ إلى أن اقتنع أخيراً بأن أُخزّن معه مجموعة من علف أعواد القات، بدلاً من الشراب.

عادت عيشة للحديث، قالت إن البهمة نزلت إلى تِهامة، تبحث عن عشيقها المكرّش، وبهذيان راحت تغني:

«شُفت الأعين الصِّحاح

وا مسافر لَزبيد

مكتبة الفكر الجديد

بلبلي. .

بلبلي باله بلا. .».

نظر إلى بطنها، وقال إنّها ستلد قريباً «القحبة ما رضيت تقول ما اسم الملعون اللي حَبّلها».

ارتبكت من قوله، وزاد ارتباكي التفات عيشة إليّ أثناءها وهي تضحك. هل تقصدني؟

بقيت تردّد بصوت منخفض لحن أغنية بكلمات غير واضحة.

«هاه»، تنبّه سرور، وكأنّه تذكّر شيئاً: «ما يشتو لمّا يسألوا عن أصولنا. يشتو ترقيتنا من أخدام إلى ناس مثلهم. أم يشتو ذبحنا لأننا سود. ما يكفيش أننا أخدام. لماذا لا يقرأون تاريخ أبي الطامي الملك جيّاش بن نجاح (المفيد في أخبار زبيد)، أو(الحوليات السوداء)، و(ما لم تقله الأخبار)، وكتاب الفنون. يقرأون ما يكتبون فقط ويبيدون تاريخ غيرهم».

أردت أن أستفهم أكثر لكنّني خفت أن أستثيره وهو في حال نشوة. سألني بعد صمت: «أتدري لماذا دخلت السجن؟ رحت أزور واحداً قريبي في التربة. شكّوا الأخدام فيّ، قالوا إنّني أعامل من أجل أخذ حق الخدمة عنهم. وشكوني للدائرة أنني اعتديت على نسائهم. ومن هناك، مباشرة، أدخلوني السجن المركزي. نحن الأخدام حتى إذا أردنا امتلاك شيء نحاول امتلاك حقّنا في العبودية. عندنا مستندات وعقود تعطينا الحق في

مكتبة الفكر الجديد

خدمتنا لأمبو، ونتشاجر بيننا، عمن سيكون له السبق ويحظى بهذه المكرَمة». قال إنّه قرأ في كتاب بالسجن أنّ بعض عبيد العرب كانوا من الهنود والبربر والفرس والترك والشراكسة، استعبدوهم إمّا بالقوّة أثناء الحروب، أو بشراء الأطفال وسرقتهم من عائلاتهم الفقيرة. «نحن لسنا عبيداً، العبيد أفضل منّا بكثير، فهم أعلى منّا بدرجة. فوق العبيد هناك اليهود، وفوق اليهود أبناء الخُمس، الدواشنة من المدّاحين والمُزَيِّنين الحلاّقين والجزّارين والحجّامين والحمّامين الخادمين في الحمّامات والدبّاغين والمقهويين والمقوّتين، وفوقهم القبائل، وفوق القبائل المشائخ، والقضاة، ثم السّادة، ثمّ السادة، ثمّ كُسْ أُمّك.. قُم من جنبي.. قُم..قُم»

صفعة مدوية تلقّيتها على خدّي كالصاعقة، كان يمكن لها ألاّ تقف عند تلك الاعتذارات التي ظلّ سرور يكرّرها من لحظتها، وأن ينتشر صداها على كلّ المحوى، إلاّ أنّ ما حدث أزاح كلّ ما عداه.

ففي الوقت الذي ظلّ فيه يمسح دموعي من أثر صفعته، ويتمتم بكلمات غير مفهومة، كانت هناك كلمات أخرى، تأتي من عُشّة ليست بعيدة، بدت أكثر وضوحاً لتغطي على كلّ التمتمات. قالت عيشة إنّها بهجة.

بدا صوتها ينتحب ،متهدّجاً:

«سالمين قُدّام قُدَّام

مكتبة الفكر الجديد

سالمين ما احناش اخدام».

ارتبك سرور في جلسته وهو يسمع هذا النشيج، ولم تمض سوى لحظات، حتّى سمعنا صوتاً خارج العشّة يردّد:

«سالمين مات

قتلوا سالمين».

وحين نادى: «يا سرور.. يا سرور» قال هذا الأخير إنّه صوت الحرتوش وقفز من مجلسه كشرارة نار تتبعه عيشة، وهي تصرخ «سالمين مات.. سالمين مات؟» كمن فقدت العزاء لحياتها أو وجودها.

- ٣ -

بقي المحوى في حال حزن على فقدان سالمين الذي قالوا إنّهم غدروا به.

لم أكن أعرف من هو؟ ولماذا كلّ هذا الحزن عليه من قِبل الأخدام؟.

مرّت أيّام وأسابيع وسالمين هو موضوع كلّ الأحاديث. كان اسمه يخرج مع كلّ تأوّه صوت، وعذاب شجن.

في الليل، كنّا نسمع انتحاب بهجة، وهي تردد هتافات وشعارات أيّام سالمين المجيدة، كما كانت تصفها.

كان هناك، أيضاً، صوت الغرنوط، الذي ظننت أنّ ثورة قد قامت حين سمعته يهتف وهو يجري بين العُشش:

مكتبة الفكر الجديد

«ثورة ثورة شعبية

ثورة حمرا حُرّية».

في ليالي العزاء التي أُقيمت في عُشّة بهجة وأمامها تحدّث كثيرون، ومنهم الحرتوش، عن سالم رُبَيّع علي المشهور بـ«سالمين» والذي كان رئيساً لليمن الجنوبي، أو جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية.

بين لحظة وأخرى، تنتحب بهجة: «رفع رؤوسنا ومات»، فيما تحاول عجوز تجلس إلى جوارها تهدئتها.

عرفتُ من عيشة أنّ بهجة كانت إحدى القيادات الحزبية في عدن أيّام سالمين، وأنّها لم تجئ إلى شمال اليمن قبل سنة ونصف إلاّ لمهمّة ثورية تتعلّق بتنظيم الأخدام سرّاً إلى صفوف الثورة التي قادها سالمين «جاءت من عدن إلى تَعِز بطريقة سرّية، وبمغامرة خطرة اجتازت فيها الحدود بين شطري اليمن دون أن تنتبه الشرطة في الجهة الشمالية».

تمضي بهجة في هذيان محموم، وهي تتذكّر المظاهرات في عدن، التي اشتركت فيها نُصرة لسالمين.

لم تنسَ في تذكّرها الهذياني أن تعيد بين وقت وآخر الشعار، الذي بدا كأنّه الأكثر قُرباً إليها، وربّما إلى جميع الأخدام، ذلك الشعار الذي كانوا يدعون فيه سالمين إلى المضيّ والتقدّم للأمام، ويرفضون أن يبقوا أخداماً:

مكتبة الفكر الجديد

«سالمين قُدَّام قُدَّام
سالمين ما احناش أخدام».

قالت إنّ سالمين حرّر الأخدام، ورفع رؤوسهم لأوّل مرّة «ما كنش حدّ قادر يعاملنا كأخدام ناقصين. إذا في واحد أهاننا كُنّا نُبلِّغ عنه فيأخذونه للسجن مباشرة».

تحدّثت عن دخول الأخدام لأوّل مرّة في العمل بالجيش وتوظيفهم في الدولة، وكيف تمّ تعليم ومحو أمّية الكثيرين منهم، دون فرق بين امرأة ورجل. وأنّ الذين كانوا يقرعون الطبول وينفخون المزامير ويغنّون في الحفلات والأعراس صاروا موظفين كفنّانين في فِرق للموسيقى والرقص. ولم يعد هناك أي خادم يتسوّل طالباً صدقة من المحسنين.

«نشتي مَنْ يحترمنا كما نحن. يحترم ثقافتنا. يحترم لوننا. طعمنا الأسود. رائحتنا السوداء».

كان سرور يهزّ رأسه، وهو يسمع هذه الكلمات من بهجة، وعندها قال: «يُخدِّموننا. يتركوننا بلا شيء مئات السنين. وبعدها يقولون بكل سهولة إنهم سيدمجوننا في المجتمع. هل نصفّق للدولة ونحن نعيش في العفن؟ نصبح أخوة وأحباباً لهم؟ أنا لست ضد هذا، ولكن كيف يكون ذلك؟ أنا اليوم تحاورت مع ثلاثة من شباب امبو، فذكروا لي الأمثال الشعبية التي ما زالوا يردّدونها: «من صاحَب الخادم أصبح نادم» و«الخادم أنجس من اليهودي» و«اغسل بعد الكلب واكسر بعد الخادم».

مكتبة الفكر الجديد

تصوّروا، يعني أنه يمكن غسل الإناء النجس، إذا ولغ فيه الكلب سبع مرّات، إحداهنّ بالتراب، حسب التعاليم الدينية، أمّا إذا أكل الخادم في إناء، فإنّ نجاسة الإناء لا تزول إلاّ بكسره. . وعندما تجنّبتهم ومضيت، لاحقوني بأغنيتهم:

لا يَغُرّك

حُسن الأخدامْ

النجاسة بالعِظام».

هذه اللهجة من قِبل سرور، لم تُنسه التأكيد بوضوح، حين صرنا وحدنا، أنّه لا يتفق مع الشعار الذي رفعه سالمين حول الأخدام، مع أنّه اعتبره عظيماً لأنّه حاول أن يحرّر الأخدام. قال: «لنتحرّر، لنصبح أحراراً، ولكن لماذا لا نبقى هكذا بأسمائنا: أخدام، لحُوج، شمر، أشافولي، سناكم، أحجور، صبيان. أخدام. . أخدام. . الخادم عندنا يعني الحُرّ، وعليهم هم تغيير معنى الخادم في لغتهم لا نحن».

يصبح سرور أكثر تماسكاً في لغته وعباراته حين يكون نشوان، وشرب ما يكفيه من الخمر البلدي المصنوع بشكل خاص. بعد تفكير، أضاف: لماذا لا نصبح أحراراً بأسمائنا وصفتنا؟ لماذا نتبع هؤلاء الامبو حتى حين نريد أن نتحرّر. أليس من حقّنا أن نختار شكل حرّيتنا؟.

مكتبة الفكر الجديد

- ٤ -

كان مقلقاً لي خبر ولادة عيشة بسبب تلميحاتها الكثيرة لي بأنّني أنا من غرس الجنين في أحشائها، ولم يكن أحد يفهم إشاراتها وغمزها غيري.

عندما ذهبت إليها مسرعاً. ابتسمت، وأشارت إلى المولود قائلة إنّه يشبه أباه. لم أعلّق. طلبت مني أن أسمّيه، فقلت وأنا أضحك: «ليسمّه أبوه». مضت هي، أيضاً، في ضحكة طويلة. كانت هناك ضيفة أخرى، تجلس إلى جوارها. قالت إنّ اسمها زيزفون؛ لم أرغب في المكاشفة بوجودها.

الطفل ليس أسود، بل قليل السمرة. حاولت أن أزيح عينيّ عنه، مبتعداً عن التدقيق فيه. لا أرغب في إثبات شكوكي.

يستهويني اسم عيشة، لهذا اقترحت أن يكون الاسم مشتقاً منه وتابعاً له، هكذا: عائش عيشة.

أيّدني سرور، الذي كان قد وصل في اللحظة نفسها، كما أعجب الاسم زيزفون، التي طلبت منّي أن أوصلها إلى عُشّتها، لأنّ الوقت قارب منتصف الليل، وهي تخاف من الظلام.

- ٥ -

قبل الوصول إلى عُشّتها، اعترفت زيزفون بأنّها لا تخاف من الظلام، لكنّها طلبت منّي أن أوصلها لتتعرّف عليّ أكثر. قالت إنّ هناك شيئاً ما قد جذبها إليّ.

مكتبة الفكر الجديد

تحدّثت زيزفون بهمس حتى لا يسمعها مُحوّيو العُشش المجاورة. قالت إنّ أختها وزوجها وأمّها هم الآن في العُشّة، وإنّها تريد مني أن أجبر بخاطرها، وأجلس معها قليلاً، في منعطف اختارته بين زقاقين من أزقّة العُشش، قبل أن تروح إليهم.

مضت تتحسّس بأصابعها وجهي الذي لم تعد تراه الآن واضحاً في الظلام. تريد أن تستذكر ملامحه، التي كانت شاخصة إليها قبل لحظات، وهي تضاء بفانوس عيشة الصدئ.

تكاد تشهق، وهي تقبّل كلّ مساحات وجهي. أمسكت برأسي ككرة بين يديها، وقبّلت جبهتي وعينيّ وأنفي ووجنتيّ وشفتيّ وذقني. وضعت رأسي بين نهديها وضمّته بقوة حتّى تبلّل بالعرق الطافح من صدرها.

انتبهت لوقع أقدام كانت تقترب منّا؛ تحرّكتُ وتلفّتُ.

قالت زيزفون «لا تخف». وحين اقتربت منّا الأقدام، بدا وجه رجل وهو يدنو من زيزفون. تمتم: «ها، هذي أنتِ»، ثمّ مضى، ولم يهتمّ بوجودي. قالت: «ما فجعك. ما يفعل شيء. المهمّ مش زوجته اللي تحتك».

وإذ أخذت قِسطها ممّا أرادته منّي، هدأت، وراحت تحدّثني عن زوجها، الذي يمكنه بيعها والتنازل عنها، مقابل قيمة «شَمَّة» أو «بُردُقان»، من ذلك الطحين التبغي، الذي يحشو

مكتبة الفكر الجديد

به صدغه من الداخل. قالت إنّه يكتفي بمضاجعة أختها سرّاً حين تكون غائبة، رغم أنّها ليست أجمل منها.

لم يحصل جميع من في عُشّتهم على عمل في البلدية، ليكنسوا الشوارع مثل معظم الأخدام، فبقى التسول هو مصدر عيشهم الأول.

زوجها الذي يحصل على عمل في أحيان قليلة، عندما يُطلب منه تنظيف حمّامات وبالوعات البيوت والمساجد، يظلّ كما قالت، مثل أمّها، لا يستطيع الحصول بتسوّله إلاّ على مبالغ مالية صغيرة أو فُتات من الخبز والمأكولات التي يقدّمها بعض المتصدّقين، وهم عادة من كبار السنّ؛ لهذا أصبح الاعتماد كلّياً عليها وعلى أختها لأنّهما، حسب قولها، تستطيعان، بكلماتهما الغنوجة واللطيفة، النفاذ إلى قلوب الرّجال، ولاسيّما الشباب منهم.

لم تطلب منّي أيّ شيء آخر سوى مرافقتها إلى باب عُشّتها، لأتعرّف عليها، وأن نلتقي مرّة أخرى.

مكتبة الفكر الجديد

١٩٧٩

- ١ -

فزِعتُ، حين عدت تلك الليلة من عملي، ولم أجد الدغلو في العشّة، وزاد خوفي عندما أكّدت لي عيشة وسرور وبقيّة الجيران أنّهم لم يروها تعود كعادتها.

لم يكن لها أوقات محدّدة تقضيها في العمل؛ مع هذا كان عملها اليومي يبدأ قبل منتصف الظهر بقليل، وينتهي مع غروب الشمس. وهي مواعيد لا تخالفها، إلاّ إذا تطلّبت منها بعض الأعمال المكوث هناك. وفي هذه الحال كانت تخبرني مسبّقاً بذلك؛ فهي، بصفتها خادمة للمنزل، عليها إنجاز كلّ ما يُطلب منها، إضافة إلى عملها المعتاد في كنس البيت، وغسل الملابس وأواني الأكل، وترتيب الفراش.

قبلها بعشرة أيام طلبت منها سيّدة البيت أن تبيت عندهم لتساعد ابنتها الشّابة على احتضان وليدها الذي أنجبته في صبيحة ذلك اليوم؛ وقد لبّت الطلب بعد أن جاءت إلى المحوى، وأبلغت عيشة التي أخبرتني بدورها، عندما جئت.

مكتبة الفكر الجديد

استغرب أهل البيت سؤالي عنها، فقد ودّعتهم، مع بدء غروب الشمس. تفهّموا قلقي، كما بدا لي، لكنّهم لم يقوموا بعمل أيّ شيء يساعد على البحث عنها.

مضيتُ، ولا أدري إلى أين؛ وجدتني أعاود المشي في طُرق عدّة مرّات، ولم أعرف كيف الخروج منها. أحسست أنّني تهتُ، بل أحسست أنّ كلّ قوى جسمي قد انهارت، وأن لا طريق يمكنه أن يوصلني إلى الدغلو، التي لم أعرف من قبل، أنّني أحبّها كلّ هذا الحب.

زادني الليل حيرة وارتباكاً. سألت نفسي: «إلى أين أمضي؟ أين ستكون الدغلو؟ ما الذي جرى لها؟» إلاّ أنّ اندفاعاتي لم تتجاوز المقدرة على السؤال بصمت؛ حيث بقيت كمن أصابه برقٌ بشلل.

لكن سرعان ما التفتُّ لأجد سرور يطمئنني بأنّنا سنجدها. كان قد لحقني، وجاء من المحوى ليبحث معي. بدأت قوى جسمي تنشط، وأنا أتّكئ عليه.

كان الوقت متأخّراً جدّاً من الليل، حين توقّفنا في طريق يؤدّي إلى المحوى؛ عندها انتبهنا إلى حركات أشخاص يركضون في اتجاهنا، وفي لحظات ميّزنا أصواتهم في الظلام. كانت عيشة واثنان من الشباب. قالوا إنّهم بحثوا عنّا كثيراً، ولم يجدونا؛ أرادوا إخبارنا بأنّ الدغلو وُجدت، وأنّها الآن في المحوى.

مكتبة الفكر الجديد

فُجِعتُ بمنظرها، وأنا أراها، على غير عادتها، منكوشة الشَّعر، ممزقّة الملابس، يكسوها غبار من رأسها إلى قدميها؛ بدت كقادمة، حالاً، من معركة فوق الرمال والأحجار، أو خارجة لتوّها من قبر شديد الإغلاق.

عانقتها فراحت تبكي؛ وبلهف عليها، وإحساس بوجع شديد أصابها وجدتني أبكي، أيضاً.

لم يكن هناك أيّ مجال للكلام. لم يسألها أحد عمّا جرى لها؟

ربّما كان منظرها أوضح من أيّ كلام، لهذا راح الحاضرون، الذين ظلّوا أمام عُشّتنا، يمسحون عنها الغبار، ويهدّئون رَوعها، كأنّهم يتلمّسون قهراً تسلّط عليها، وقطّع أجنحتها، قهراً لم تبح به الدغلو إلاّ حين صرت معها وحدي في العشّة.

قالت إنه ضابط شرطة، سبق أن قام بمغازلتها، من فوق سيارته، أكثر من مرّة إلاّ أنّها لم تستجب له «راقبوني هذه المرّة، وكانوا ثلاثة ضبّاط. دعوني لأركب معهم السيارة التي تحمل رقماً حكومياً. رفضت، وظلوا يلاحقونني، حتّى قفز أحدهم، وسحبني إلى داخل السيّارة، التي مضت بي في طريق مجهول.

بعد مسافة طويلة، في واد أخضر، تركوا السيّارة جانباً، وقاموا باغتصابي.

كلّما قاومت يضربونني، لم يتركوني إلاّ بعد أن أهلكوني،

مكتبة الفكر الجديد

ووضعوني في طرف المدينة. بقيتُ جثّة بدون حركة، إلى أن عادت لي الرُّوح وتلمّست طريق المحوى».

- ٢ -

ازداد في هذا العام زحف المباني السكنية في اتجاه المحوى. كما زحف في الاتجاه نفسه رجال الدين والسياسيون.

كان الأخدام يعتقدون أنّ منطقة عصيفرة في تَعِز ستبقى آمنة من مثل هذا الزحف، وصاروا يشاهدون الجرّافات وهي تمضي فاسحة المجال لمبان تتأسّس على بقايا مساحات زراعية خضراء، وعُشش تباعد المحوّون فيها خوفاً من الجرف.

قلقتُ كثيراً على مصير عشّتنا، مع أنّنا كنّا ما زلنا نبعد كثيراً عن طريق الجرّافات.

قاسمتني الدغلو هذا القلق، وصار شريكاً لنومنا وصحونا.

كانت هناك حركات أخرى، نشاهدها بشكل ملحوظ، داخل المحوى. مرّة سمعنا صخباً ولم نشأ الخروج من عُشّتنا للمشاركة فيه، أو الاستفهام عنه، على الأقلّ.

في الصباح قالوا لنا إنّ شيخاً جاء أمس، وجلس يُحدِّث عن المساواة في الدين، وأنّ الإسلام لا يفرّق بين أبيض وأسود إلاّ بالتقوى، وعن أهمّية النظافة وتحريم السرقة والزنى.

قالت عيشة إنّه لم يقل لهم كيف سينظّفون أنفسهم وهم ليس لديهم ماء أو صابون أو حمّامات؛ أو كيف لا يسرقون ولا

مكتبة الفكر الجديد

يتسوّلون وليس لديهم ما يأكلونه. ابتسمت، وهي تشير إلى أنّ هذا الشيخ ألطف من جاء إلى المحوى من امبو؛ فقد دفع مبلغاً ليشتروا بعضاً من الأكل والشراب لمناسبة زيارته. وحين علم أنّهم اشتروا قليلاً من الأكل وشراب خمر، لم يغضب، وقال إنّه لم يقصد بالشراب الخمر، وإنّما أيّ شراب مع الأكل كالبيبسي والماء. «بقي يُحدِّث إلى ساعة متأخّرة من الليل وكأنّ رائحة الشراب قد بخّرت رأسه هو أيضاً»، أضافت ضاحكة.

في ليال أخرى تردّد آخرون، قالوا إنّهم سيعملون على تقديم معونات خيرية للأخدام؛ وفي ليلة جاء ضبّاط بلباس عسكري، وآخرون بلباس مدني، يسألون عن أشخاص ينتمون إلى أحزاب سرّية، قالوا إنهم جاءوا إلى المحوى للاختباء فيه.

قلق الكثيرون من الحركة الأخيرة لرجال الأمن. كانوا يعتقدون أنّهم يستهدفون بهجة، ونشاطها السياسي، وحين ذهبوا للاطمئنان عنها لم يجدوها، كما أنّهم لم يشاهدوا أحداً قام بأخذها أو اعتقالها. كأنّ الأرض انشقّت، كما قال سرور، وابتلعتها، إلى الأبد.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

١٩٨٠

- ١ -

سألتُ عن بهجة في سجن النساء الذي كان قريباً من المطعم، لكنّني لم أتلقّ أيّ جواب.

اعتدنا، مع الأيام، مرور وجوه ملثّمة بين العُشش بشكل خاطف وسريع. عرفت في ما بعد أنّ هؤلاء يأتون إلى هنا هرباً من متابعة مخبري جهاز الأمن الوطني، الذين يريدون القبض عليهم لانتمائهم إلى الجبهة الوطنية الموالية للنظام الاشتراكي في جنوب اليمن، والناشطة سرّاً في المناطق الشمالية.

كانت العشش التي يزيد عددها عن الخمسين تساعد في تنظيمها العشوائي على الهرب والاختباء. كل مجموعة منها أخذت هيئة مختلفة إما دائرية أو مربعة أو مستقيمة.

بقيت الصحف والإذاعة والتلفزيون تُردّد وصف رجال الدولة في صنعاء لهؤلاء بالقول إنّهم «مخرِّبون»؛ فيما كان الفقراء والعمّال والفلاحون يتعاطفون معهم سواء بالسرّ، أو بدعمهم وتسهيل نشاطهم. توافق الأخدام معهم تماماً حتّى وإن

مكتبة الفكر الجديد

لم يقم الكثير منهم بأيّ نشاط جبهوي تنفيذي. سرور وحده أعلن تشاؤمه من أيّ نتيجة يمكن أن يحقّقها هؤلاء الجبهويون؛ كان أكثر المحوّيين في العشش ثقافة، وله رأيه الذي قد لا يُشبه أيّ رأي آخر.

أعرف اثنين في محوى زين يجيدان القراءة والكتابة، هما سرور والحرتوش، إلى جانب بهجة التي اختفت فجأة. الأول تعلّم عند الشيخ الفقيه، أمّا الحرتوش وبهجة فتعلّما أثناء وجودهما في عدن.

قالت عيشة إن ربّاش العبد المسجون منذ سنوات يجيد القراءة والكتابة وأنه كما وصفته داهية، أمّا جُمعة التي لم أكن قد عرفتها فقالت إن خطّها يعمي الذباب.

الحرتوش قام بنشاط واضح لحساب الجبهويين السرّيين؛ كانت آراؤه السياسية مؤثّرة وواضحة، وهو ينتقل من عُشّة إلى أخرى، شارحاً رؤية الحزب الاشتراكي اليمني الذي نشأ في عدن، وأهداف الجبهة الوطنية (الرديف النضالي) للحزب، التي تتألّف من عدّة أحزاب سرّية في شمال اليمن، وتكافح من أجل إسقاط نظام صنعاء وإقامة الوحدة اليمنية.

كان يرفض مع بهجة والغرنوط إطلاق صفة أمبو على المدينة، أو على كل من ليس بأسود. يظنون أن من مصلحة الأخدام العمل من أجل نشر فكرة التعايش لا التفرقة التي عانوا منها كثيراً.

مكتبة الفكر الجديد

نشاطه السياسي بدا أنه تغلّب على نشاطه الجنسي، الذي كان واضحاً في السنوات السابقة، مع أنّه لم يترك ولهه الشديد بالنساء في أيّ يوم، كما أكّدت عيشة التي صارت أكثر قرباً منه كيدِه.

- ٢ -

كان سرور غير مستعدّ للوقوف في الوجهة الثانية المعادية لما ارتضاه أكثر الأخدام، إلاّ أنّه لم يخفِ تخوّفه وقلقه وشكوكه من كلّ الفعاليّات السياسية، التي تحاول استقطابهم، كأعضاء فاعلين فيها، أو كحلفاء مناصرين من بعيد. جاهر برفضه للكثير من الأساليب، خاصّة تعامل القيادات السياسية معهم «ظهورهم بمظهر المخلّص للأخدام من عذابات الدنيا، والمنقذ لهم من قهر التاريخ وتهميش الجغرافيا»، مع أنّهم، كما قال: يؤجّلون ذلك، إلى حين تتحقق الطبقة البروليتارية الرثّة من مصالحها المرتبطة بظروف واشتراطات التحوّل، فتصبح قادرة على الإلمام والوعي بمصالحها الطبقية، ومن ثمّ فرضها والدفاع عنها.

بالنبرة نفسها تساءل: ما دور الأخدام في العمل السياسي، إذا كانت مصالحهم الطبقية المستقبلية مرهونة بتحقّق ظروف وشروط شبه مستحيلة؟.

وواصل السؤال بصيغة أخرى: كيف يتمّ استقطاب الأخدام ودعوتهم للوقوف مع الثورة، ونحن نسمع عن أهمّية إنجاز

مكتبة الفكر الجديد

مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية، وهي المرحلة التي تتحالف فيها قوى الشعب الفاعلة من عمّال وفلاحين وبرجوازية صغيرة، أي غير الأخدام الذين لا ينتمون إلى أيّ من هذه القوى، وبالتالي ليسوا فاعلين؟.

كان الحرتوش يُفسّر هذه الآراء بأنّها نتيجة نقص معرفي بالنظرية الماركسية، التي لم يستوعبها سرور.

لم أكن كثير الحماسة كالدغلو في متابعة ما يجري، والقيام بمهامّ تنفيذية، أو اقتراحها، لكنّي لم أبتعد عن هذه الأجواء بكلّ تفاصيلها.

رجال الدين لم يتردّدوا كثيراً إلى المحوى، فرغم استقبالهم والإنصات إليهم من المحوّيين فإنّهم، ربّما، أحسّوا بأنّهم غير مرغوبٍ فيهم.

انتهزنا، أنا والدغلو، زيارة أحد المشايخ إلى المحوى لنطلب منه أن يقوم بعقد نكاحنا، حسب الشريعة الإسلامية، بعد أن أقنعناه بتجاوز بعض شروط العقد لعدم توافرها لدينا. لبّى ذلك وقمنا بترديد العبارات التي قالها، فأصبحنا، كما قال، زوجين شرعاً.

رجال جهاز الأمن الوطني لم يتراجعوا عن تكرار زياراتهم، والتقصّي عن كلّ ما يجري. لم يُفلحوا إلاّ مرّة، إذ وصلوا في اللحظة نفسها، التي كان فيها اثنان من الجبهويين يجوبان بين

مكتبة الفكر الجديد

العُشش بحثاً عن مأوى آمن من هؤلاء الذين تبعوهما في الحال.

كان الأخدام يُظهرون أمام هؤلاء المخبرين أنّهم غير مبالين بأيّ عمل سياسي، أو ما يشبه ذلك، وظلّوا، بتصرّفاتهم الساخرة، يحاولون التأكيد أنّهم لا يدركون شيئاً مما يجري حولهم، سواء في السياسة، أو في الدين، أو في الحياة.

- ٣ -

مع مرور الشهور والسنوات صرت أعرف كلّ من في المحوى، وإذا ما جاء شخص جديد سرعان ما أعرفه.

ومنذ أن سمعتُ أنّ قادماً جديداً اسمه العصفور قد حوّى في عُشّة المتين الذي غادرها إلى تهامة، بقيت آمل مقابلته والتعرّف إليه، إلاّ أنّ ظروف عملي لم تسمح لي بزيارته، إذ كنت أعود في ساعة متأخّرة من الليل.

لكن، عندما قالت لي الدغلو إنّه جاء وسأل عنّي، وطلب التعرّف إليّ، أخذت نفسي وذهبت إليه.

استقبلني بترحاب كبير، وأصرّ على أن أتناول معه بعض أغصان القات. وجدت العصفور كأنّه صديق حميم قديم رغم الفارق في العمر بيننا. الجلوس معه يريح الأعصاب ويُسكّن النفس.

رأيت الطبلة والمزمار في زاوية من العُشّة. قال لي إنّه يقوم هو بالعزف على المزمار، بينما يقوم أخوه الزنّاط، الذي لم يكن

مكتبة الفكر الجديد

موجوداً، بالعزف على الطبلة، وتصاحباهما زوجته وابنته بالغناء والرقص.

بدا لي أنّهم يعيشون على ما يجمعونه من مال، يحصلون عليه أثناء تأديتهم للأغاني والرقصات الشعبية في الأسواق والحارات.

ظلّ يتحدث وابتسامته تملأ شفتيه، كما أنّ زوجته وابنته، هما أيضاً، كانتا في حال ابتسام دائم.

تحدّث عن أنواع الغناء الشعبي التي يجيدها، وراح ينفخ في المزمار، فيما ابنته فارعة وزوجته نهود تتناوبان على الغناء، فتؤدّي كلّ منهما المقطع الذي عليها في الدور. أسمعوني في البداية:

«يافَاتِنِيْ

اليَومْ يَومَ الخميسْ

يافَاتِنِيْ

إعْذُبْ إبليسْ

فُكْ زِرَارَ القمِيصْ

....

ليتكْ تِساعِذْني

تَفُكَّ الأزْرَارْ

تدخُلْ الجنّه

مكتبة الفكر الجديد

بعيْد مِنَ النّارْ

. . . .

فُكَّ الزْرارْ

تحت الزِّرار شَرَاب نار

تحت الزِّرار جنّه

وتحْته أنهار

. . . .

فُكَّ الزِّرارْ

تحت الزِّارْ يلامِعْ

تحْتَ الزرار

ثِنتينْ قُبابْ وجامعْ

ساجي العيون

الغنج ما لنا به

فك الزرار

كلين يشل حسابه

. . . .

لا أنا البهيمة

ولا أنت الحمار

ما حد غلب حد

مكتبة
الفكر
الجديد

تراضينا نهار

فكيت حقوك

وفكيت الزرار

لا تُقاضي بصنعاء

ولا ندخل ذمار»

أخذت النشوة تهزّ كياني، وأنا أتتبّع تناغم صوتيهما مع صوت المزمار، وكذلك وقوف فارعة في بعض الأحيان لتتمايل بجسدها مع الإيقاع الرّاقص. كانت ليلة لا مثيل لها عندي، أنا المحروم من البهجة؛ حتى إنّ العصفور عندما أحسّ بنشوتي الطربية، سألني عن أنواع الغناء التي أعرفها، وإذا أمكن أن أقوم بتأديتها معهم. لكنّني خيّبت أمله إذ أكّدت له أنّني مجرّد مستمع، ليس أكثر، للغناء؛ بل مستمع من الدرجة التذوقية الدنيا.

على عكس كلامي، أشاد بذوقي الغنائي الرفيع، وقال إنّني صرت صديقاً عزيزاً لهم، بسبب ذلك. تحدث عن أغنيّة صنعانية حُمينيّة في الأزرار. قال إنّها من النوع النّادر الذي يمتاز به الفن الصنعاني: «أزرارهم غير أزرارنا. . أزرارهم تُفك في القصور. وأزرارنا في العشش»، وراح في عالم القصور، يغنّي:

«أحِبّة ربا صنعا عجب كيف حالكم

وهل عندكم ما حل بالعاشق المضنى

مكتبة الفكر الجديد

وخلّوه يتأمل محاسن جمالكم

ويحظى بطيب العيش فيها ويتهنّا

وقصدِه برشفة من معتّق زلالكم

فجودوا وقولوا له إذا قد شرب يهنا

وفكّوا له الأزرار وحلوا دلالكم

وخلّوه يلمس جنّة الخلد باليمنى

ويقبض زكاة الحب من عين مالكم

فمن يلمس النهدين قد فاز واستغنى

ولا تحرموا المملوك يرعى خيالكم

ولا تمنعوه أثماركم ساعة المجنى»

بدا العصفور وكأنّه قد سكر من الأغنية الصنعانية، إذْ مضى يدندن، من النّوع الفنّي نفسه. ربّما طار إلى مقطع بذاته كان يحبّه:

«فَفُضْ عن دنِّ السُلاف اللثام

واسقني خامس وسادس

ما يشرح الأرواح غير المُدام

فلا تكن للكأس حابس».

حين رجعت إلى العُشّة، لم تصدّق الدغلو أنّ كلّ تلك

مكتبة الفكر الجديد

البهجة فيّ كانت بسبب ما سمعته من غناء، بل بسبب ما رأيته، كما قالت، من صاحبة الغناء. وراحت تغمز لجهة فارعة، إلاّ أنّ انعكاس البهجة في كلامي، ومداعبتي لها، أنسياها فارعة، وما في حُكمها.

مكتبة الفكر الجديد

١٩٨٢

- ١ -

كأنّنا نمضي في هوى واحد، فما إن رحت أُفشي حنيني إلى الوادي، قرية طفولتنا، حتى مضت الدغلو تهذي بأشواقها إلى حيث الأهل والصديقات والأشياء الحميمة.

أتذكّر أمّي. سبع سنوات مضت ولم أرها. هل عاد أبي من الرياض؟ وجدّي عبدالكريم هل عاد من مانشيستر في بريطانيا؟ هل عادوا جيراننا من جدّة ومكّة؟ هل ما تزال كُعْدُلهْ تغني:

«ياراديو لندن

ياعالي الصوت

قل للحبيب يرحع

قبل ما يجي

موت».

وخالتي شموس التي كانت في أغانيها، تتحسّر على شبابها مع زوجها الضائع، بين الرياض وجدة:

مكتبة الفكر الجديد

«ساروا الرياض

وسَيِّبوا غواني

وأنا من الدُّخلهْ

ولا بيَانِ

. . . .

يومَ الخَمِيسْ

قَلبِيْ سَرَحْ لـ جُدَّهْ

على الحبيبْ شَاخْرِجْ

مِيَةْ نُهْدَهْ»

منتهى كان صوتها شجياً:

«بالله عليك

ياذا المُغني غنّي

صوتك قريب

وأنت بعيد عنّي»

بقيت الذكريات تشدّنا إلاّ أنّها لم تحفّزنا، للعودة إلى القرية.

سألتُها: لماذا كل هذه الأحزان التي تستبيحنا هذه الأيام؟

في البداية هزّت كتفيها علامة على أنّها لا تدري، ثمّ قالت: ربّما جاء ذلك بسبب ما يتهدّد محوى العشش من جرف

مكتبة الفكر الجديد

واستيلاء على أرضه، ليبنوا فيها العمارات الإسمنتية.

كثيرون جاءوا إلى المحوى ليقيسوا أرضيّته، ويحدّدوا مساحاته؛ فأدركنا مع تزايد تردّدهم أنّهم على وشك جرف العُشش، والبدء ببناء العمارات على أنقاضها. الأخدام، جميعهم، يقولون ذلك، وكأنّهم سمعوا من مصدر موثوق.

لا يقدرون على فعل أيّ شيء أمام هذا الزحف، كما لا يقدرون على مواجهة الملاريا والبلهارسيا.

السؤال عن مصيرنا، أنا والدغلو، بدأ يقلقنا، فلم نعد نعرف إلى أين سيمضي بنا الحال؟

مع هذا، لا نبوح بتخوّفنا، فلن نمضي خارج سِرب الأخدام الذي ارتضينا أن نكون جزءاً منه.

- ٢ -

«الدكتور سيتزوج جُمعة»

تناقل المحوّون هذه العبارة، وأصبحت في لحظات على كلّ لسان. لا يوجد، من يحمل صفة الدكتور، عندهم غيره، وهو طبيب الأطفال والباطنية المعروف خارج المحوى بالحكيمي، اللقب الذي لم يعودوا يتذكّرونه هنا، مع إنّه ظلّ يجيء إلى المحوى ليفحصهم ويقدم العلاج لهم مجّاناً. أحياناً يجيء كلّ ثلاثة أشهر، وأحياناً كلّ ستة أشهر. في الفترة الأخيرة صار يجيء كلّ يوم جمعة، وكانت جمعة فتاة المحوى هي

مكتبة الفكر الجديد

السبب. لقد أحبّها، ومن أجلها، كما يقولون، يعمل أيّ شيء للأخدام.

كانت تعمل مُنظفة، أوفرّاشة، في عيادته الخاصة، ثمّ علّمها، بواسطة مساعده، القراءة والكتابة وضرب الإبر، لتصبح مع الأيّام أمينته على كلّ شيء.

لم تكن تطلق عليه صفة الأمبو، كما لم يقم أحد في المحوى بضمّه إلى حاملي هذه الصفة. في الأسابيع الأخيرة، ظلّت جمعة تتحدث عنه بشكل لافت، عن سلوكه تجاهها، عن احترامه لها، وعدم إشعارها بأنّها خادمة ناقصة، كما يفعل الآخرون. آخر ما قالته أنّ الدكتور يطلبها، ويرجوها، كأي رجل يحب امرأة «أشتي أتزوجك.. وأرجو أن توافقي»، وهو القول الذي بقي يردده المحوّون غير مصدّقين. جمعة نفسها بدت غير مصدّقة، حتى حين صارت تجلس إلى جواره أثناء حفلة العرس، ظلت تقضم أصابعها بأسنانها لتتأكد من أنها تعيش اللحظة فعلاً وليست في حلم.

جاء إلى المحوى ومعه ثلاثة من أصدقائه، وممرضة سبق وأن جاءت معه أثناء زياراته الطبّية.

الاحتفال بدا مبهجاً وصاخباً بالغناء والرقص. شعر الأخدام بالزهو، ببعض من ردّ الاعتبار. حتى أن سرور الذي جلس في الدكة نفسها التي تربّع فيها العريس والعروس، حين قال له الدكتور: هذا يوم أسود حلو.. مش كِذه ياسرور؟

مكتبة الفكر الجديد

أجابه: يوم حلو.. أسود وأبيض.

وظهر في قوله الوجه الآخر له، الوجه الذي لا يعرفه فيه إلاّ من اقترب منه أكثر. وجه متسامح يحب الحياة، ينسى عذاباته وأحقاده أمام أيّ فعل انساني ودود، قد يعذر مضطهديه في الذاكرة، لكنّه، كما يقول، لا يقبل مواصلة أسلافهم للفعل نفسه في الواقع المُعاش.

«يوم حلو.. أبيض وأسود» أعادها مبتهجاً.

نبّهني مرّة إلى أن الكثيرين يستخدمون كلمات مضادة للون الأسود، كقولهم: نهار أسود، يوم أسود، ثلاثاء سوداء، نقطة سوداء، حين تحصل كارثة أو مشكلة. وإلصاقهم كلّ شيء جميل باللون الأبيض: نهار أبيض، قلب أبيض، كتاب أبيض، كذبة بيضاء.

أصر سرور أن أجلس بالقرب منه في الدكة التي عُملت من أجل الاحتفال، وبدا أن الدكتور يعرفه كثيراً حين أبقاه إلى جواره، وظل يتحدث معه بين لحظة وأخرى.

لم يكفوا عن امتداح الدكتور وهم يهنئونه، يتذكّرونه إذْ أنقذ أكثر أطفالهم من الموت. كانوا يأتون إليه في عيادته أو بيته، في أي وقت. لا يكتفي بفحصهم مجّاناً، بل ويعطيهم قيمة العلاج ليشترونه.

حاول تخليصهم من أحد مصادر البلهارسيا والملاريا. بقي يسعى لردم مستنقع عُصَيْفِرَةْ، الذي لم يكن لديهم غيره، يشربون

مكتبة الفكر الجديد

منه ويغسلون فيه. طالب بحفر بئر بديلة، لكنّ آماله لم تتحقق، كما قيل. خيّب طموحه الدعم الحكومي الذي لم يصل، رغم الوعود الكثيرة.

جُمعة لم تكن توجد كثيراً في المحوى، ولا تشارك كثيراً في المناسبات. ربما هي مثلي، لا تجد الوقت لذلك، تعمل منذ الصباح حتى الليل.

قبل هذا اليوم، بل قبل سنتين أو أقل، كنت قد سمعتُ عن مهندس زراعي تزوج قبل أن نجيء إحدى الخادمات، وإنّه أراد العيش معها في المحوى، في العشّة نفسها التي ظلّت فيها وحيدة بعد موت أبيها وأمّها وأختها. لكنّهما ماتا بعد أشهر من زواجهما. قالوا إنّ البلهارسيا أهلكتهما، مع جملة من أهلكت حينها.

حفلة عرس جُمعة والدكتور ذكّرتني، أيضاً، بعبدالله ابن صاحب المطعم؛ حدّثني أكثر من مرّة أنّه يتمنّى الزواج من خادمة «لو أستطيع ذلك . . أكسر التقاليد المقيتة». مع هذا، كان يتبع قوله بتذكيري، وربّما، بتنبيه نفسه، أيضاً، أنّ أباه لن يسمح له، لن يكتفي بالغضب والاحتجاج، قد يقتله إذا ما أقدم وتزوّج من خادمة سوداء.

ربّاش كان مولّهاً بالبنات البيض، إذا ما رآهن في أيّ ظرف، تتوهج شعلة مغناطيسية فيه وتتجه نحوهن. يظلّ يتأسف من تفسير سلوكه بأنّه محاولة اغتصاب، بينما هو محاولة للحب، كما يقول.

مكتبة الفكر الجديد

اكتشفت أنّ هناك وجهاً آخر لسرور، هو ربّاش العبد، الذي بقي يرفض الجلوس أو النوم داخل العُشش، منذ أن خرج من السجن.

يفضّل الذهاب إلى الوادي الفسيح ليقضي وقته تحت شجرة، أو بجوار صخرة في تلّ مرتفع، أو جبل.

«هل أخرج من جدران السجن الإجباري، وأدخل سجن العُشش الاختياري. أليست كلّها حواجز وجدراناً؟». يقول لكلّ من يدعوه إلى عُشّته.

هو، كسرور، ليس متيّقناً من أيّ شيء. لم يكن، كما قيل، هكذا من قبل. لقد غيّره السجن الذي دخله وفيه حماسة التغيير والانقلاب على كلّ شيء.

يقول سرور إنّ ربّاش كان ثورياً متطرّفاً، ولم يكن الحرتوش إلاّ أحد تلامذته المخلصين، لهذا حازت أخته شمعة، التي كانت آخر من بقي من أسرته، على رعايته، وفاء لأستاذه، منذ أن كانت في العاشرة من عمرها إلى أن صارت شابّة يستلذّ بها وحده، وهو المولّه بتعدّد اللذة واختبارها في أيّ امرأة يجدها مناسبة.

أراد، يقول سرور، أن يكون ملاذها الوحيد، فيما تظلّ كلّ امرأة ملاذاً له.

ما لم يقله سرور، وكنت قد عرفته من آخرين، أن شمعة وافقت في البداية، على اشتراطات الحرتوش، لكنّها وجدت

مكتبة الفكر الجديد

نفسها، ذات يوم، متوحّدة مع هذيان سرور نفسه وتمرّده، أكثر من أيّ رابط آخر. هتفت له، كما يفعل الأطفال، حين يرونه:

«صورة.. صورة».

فاقترب منها، حيث كانت تجلس أمام عشّتها، مزيحاً غطاء الصورة، التي، ربّما، لم تختلف عن تلك التي تجمعها مع الحرتوش سوى أنّ حنان الأصابع في الصورة الجديدة، بدا متدفّقاً بلا إطار.

كنت أراها أكثر من مرّة، في عُشّة عيشة، مع سرور، الذي يصبح في وجودها شخصاً مرحاً وبلا كآبة.

الحرتوش كان كثير الغياب فأعطى لها فرصة أن تختبر لذّتها مع آخرين. شمعة بدت مختلفة عن كلّ من في المحوى، فبجسدها الممتلئ عافية، والصاخب أنوثة، أربكت أكثر رجال العُشش اتّزاناً. في ضحكاتها وهمساتها وعطفات عباراتها، ونُطق كلماتها، كانت تقدّم البرهان على أنّها تعيش في الغُنْج، ومن الغُنج جاءت.

لِمتُ نفسي على عدم فتح عينيّ جيداً من قبل لأكتشف أنّ هناك امرأة طاغية الجمال مثلها.

كسرت شمعة الحواجز التي بيننا، فصرت ألتقيها كلّ ليلة مع ربّاش، عندما أذهب بعد عودتي من المطعم إلى مرتفع تلّ في الوادي القريب من المحوى، لأجدهما هناك يتناولان القات ويتحدّثان.

مكتبة الفكر الجديد

نعود، أحياناً، أنا وهي، إلى العّشش ونتركه في مكانه لينام. في ليالٍ كثيرة أبتهجُ إذْ أعود في وحشة الليل معها، وأصابع أيدينا متشابكة. تلتصق بصدري، وأضمّها إذا أخافتها حركة عشب في الريح، أو انزلاق حجر من مكانه، أو شحشحة حشرة، وخفقة جناحي طائر.

صار صدري أليفها، حتى أنّه لم يتراجع عن تقاسم بعضها، حين نعود ولا نجد الحرتوش في عُشّته.

بقيت عدّة أيّام، أجلس معها حتى يجيء. لم يعترض على وجودي، لقولها إنّها تخاف النوم وحدها؛ ثم صارت تجيء معي لتنام في عُشّتنا، إلى أن تسمع صوته يناديها إذا ما وصل متأخّراً.

تقبّلت الدغلو في البداية زياراتها، ونومها المتكرّر في عُشّتنا، لكنّها سرعان ما انتابها الشكّ، وهي تسمع في هدأة الليل حركات غير عادية.

قرّرت وضع حدّ لشكّها وقلقها. هربت من الأسباب التي تؤدي إلى مقابلة شمعة.

ليس من السهولة التخلّي عن الدغلو، أو المضي إلى جَرحها.

بقيت تشكو من هياج سرور عليها، فلا تستطيع التخلّص منه إلاّ بصعوبة. قلت له: الذي يسمع قصصك مع النساء لا

مكتبة الفكر الجديد

يصدّق أنّ الذي قام بها هو نفسه سرور العاقل صاحب الوعي الكبير.

ردّ سريعاً: من قال إنّني عاقل.. أو لديّ وعي؟

ثمّ، وكأنّ شيئاً مسّ شرفه: لا يشرّفني أن أحمل مثل هذا العقل أو هذا الوعي.

ينتابني لأوّل مرّة قلق غريب؛ بدأت أسئلة كثيرة تثيرني عن العقل والوعي؛ عن الإنسان، وهو يعيش بين كومة من القاذورات.

زحف البيوت الإسمنتية نحو العُشش يزيد من قلقنا؛ جرّافات كثيرة سبقتها. لا يستأذنون أحداً من الأخدام، في هدم عُششهم، ومسح الأرض لتكون صالحة للبناء، يقولون إنّ تجّاراً كباراً اشتروا الأرض من أصحابها، الذين لم يعرفهم أحد، وسوف يستغلّونها في البناء.

أحدّث نفسي إذا ما كانوا سيذكرون يوماً ما أنّه كان يوجد هنا محوى للأخدام، اسمه محوى زين؟ ما نفع الذكرى؟ هل سيعوّضونهم بأبنية أخرى صالحة للسكن تمهيداً لدمجهم في المجتمع، كما يقال؟

يقترح سرور أن يحنّطوا نموذجاً من الأخدام، ويضعوه في زجاج بمتحف، ثم يتركوا ما تبقّى منهم ينقرضون: عليهم أن يتحوّلوا إلى حشرات، صراصير، أو فئران، إلى أيّ شيء؛ أفضل لهم من أن يتكيّفوا ويُعاد تشكيلهم، ليصبحوا كمثل

مكتبة الفكر الجديد

هؤلاء، الذين لم يقبلوا بهم في يوم من الأيام.

أريد أن أسأله: وماذا عليّ أن أفعل، أنا الذي وجدتني ذات يوم منجذباً إلى الطعم الأسود والرائحة السوداء؟ وماذا على الدغلو أن تكون؟.

هل الانجذاب إلى رائحة رغبة نفّاذة في مفاصل سوداء يمكن أن يتحوّل ويتراكم إلى أيّ شيء، كبراز وبول ومخاط، أشياء معكومة بمنيّ ودم حيض؟

كيف يمكنني معها، بعد كلّ هذه السنوات، أن نتقبّل زحف الجرّافات، ونستسلم لها، وهي تُلغي من الأرض شيئاً اسمه محوى زين؟

هل يمكن أن نُصبح، هكذا. لا شيء. أتساءل، مَن نحن؟. أين ستكون عيشة وشمعة والحرتوش، وغناء فارعة والعصفور؟ أين هي بهجة؟ من هو ربّاش بعد كل هذا الزحف، بعد كلّ هذا الخراب، بعد كلّ هذا السجن؟

في زاوية أخرى، يتحدّث سرور، يسأل ولا يجيب، كأنّه أنا وكأنّني هو، كأنّه آخر تخلّى عن سرور، أو سرور تخلّى عن آخر، كأنّه غيره، أو لا شيء «أنا قرطاس في أرض، حفنة غُبار، كومة قشّ. أنا هو أنا.. أنا لا شيء. أنا حذاء معلّق. حذاء مقطّع مرميّ في زُبالة. أنا زُبالة. البقايا إخوتي. العُلَبُ الفارغة بيوتي. لا، أنا بيتها. أنا عُلبة فارغة. عُلبة مدعوسة في طريق».

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر
الجديد

لم يكن أمامه سوى تتبّع رائحة الجسد؛ فواصل انجذابه إليها، ليهرب إثر علاقة حميمة مع «الدغلو»، وهي من فئة «المُزيِّنين» المهمَّشين، إلى محوى «الأخدام»، وهم السود في اليمن. وهناك، حيث صار يُعرف بـ«امبو»، تتكشَّف العلاقات بين كل هؤلاء، في حياة تبدو لاحدودية، مع أنّها محاصرة بهويّة عِرق، وحوادث تاريخ، ومعاني وطن صار بلا معنى.

يدخل علي المقري في هذه الرواية، عالماً ظلّ مجهولاً لكثيرين، فيقدّم صورة مختلفة وغير مألوفة عن جانب من حياتنا.

«نموذج لطيف لنهج ورؤية وجمالية مختلفة في الرواية العربية».

أحمد المديني

«مؤثّرة وجارحة».

مجلة «المشاهد السياسي»

«نص أدبي رفيع في لغته وإيحاءاته».

مجلة «اليمامة»

علي المقري كاتب وشاعر يمني. يعمل في الصحافة الثقافية منذ ١٩٨٥. صدرت له عن دار الساقي رواية «اليهودي الحالي».




ISBN 978-1-85516-321-8
9 781855 163218

مكتبة الفكر الجديد